صوت
لم يسمعه احد

بقلم: مؤلف مجهول

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى - 2025

الإهداء

إلى من كسرهم العالم ولم ينكسروا...
إلى كل من صمت طويلًا ولم يجد من يسمعه...
إلى أولئك الذين مروا من الجحيم،
وخرجوا بأرواح ناقصة ولكنهم ما زالوا يبتسمون.
هذا الكتاب منكم... وإليكم.

المقدمة

الحياة لا تمنحك مهلة للاستعداد. تقذفك فجأة في معاركها دون درع أو سلاح. وفي عرض هذا الاضطراب والانهيارات والصمت والوجع، ولدت قصة هذا الكتاب.

ليست هذه رواية، ولا نصًا تخييليًا، إنما هي مرآة مكسورة لنفس إنسانية حاولت النجاة. فيها سقوط مرات، ونهوض مرات، وفيها حقيقة نخاف من مواجهتها: لا أحد ينجو كاملًا.

قد تجد نفسك في كل زاوية، في كل حوار، في كل انكسار، وربما في كل أمل صغير نما تحت ركام الحياة.

كلمة المؤلف

هذا الكتاب لم يُكتب للشهرة، ولا لتضيع الوقت, أو لكثرة وقت الفراغ. كُتب لأجل النفس، ولأجل كل من مروا من هناك، حيث الظلام والوحدة والسقوط.

كُتب كي يقول: "أنا هنا، وقد نجوت. لست أفضل منك، ولكنك قادر." كُتب لأن التدوين وسيلة للتشافي، وكل حرف فيه هو صرخة كُتمت لسنوات.

إن الطريق لم ينتهِ، وقد لا يكتمل في هذا الجزء. ولكنِي سأترك هذا الكتاب كشاهدة على أننا نقدر.

ما دام القلب ينبض، فهناك طريق، وما دام في الروح نبضٌ، فالشفاء ممكن.

الفصل الأول

البداية القاسية

"ليتنا نعرف متى تكون لحظة النهاية،
كي
لا ندخلها ببراءة البدايات."

"في بعض الأحيان، يولد الإنسان في ظروف لا يملك القدرة على تغييرها. يولد ليكتشف أن الحياة ستكون معركة منذ اللحظة الأولى. وأن هذا الكائن الصغير، الذي لا يزال يعجز عن فهم العالم من حوله، هو ضحية لظروفه، لعائلته، ولزمانه. كان يعتقد أن الأشياء ستتحسن مع مرور الوقت، لكنه اكتشف سريعًا أن بعض الجروح لا تشفى، وأن بعضها يظل مرافِقًا لنا طوال العمر."

في أحد الأحياء العتيقة، حيث تتداخل أصوات الباعة المتجولين مع صراخ الأطفال وهدير السيارات القديمة،

وُلد فريد عام 1996 في مدينة عمّان، في المستشفى الإسلامي،

في زمن كان يعيشه جيل التسعينات. جيل نشأ بين البساطة القديمة التي كانت تحكم الحياة، والتطور التكنولوجي الذي بدأ يزحف ببطء نحو البيوت والمدارس. جيل كان عالقًا بين الماضي والمستقبل، بين القيم العائلية التي تآكلت، وبين عالم يتغير بسرعة.

نشأ فريد في منطقة شعبية متواضعة، في بيت صغير لا تتجاوز مساحته بضع غرف ضيقة. كانت الحياة في تلك المنطقة محكومة بالفقر، ومع ذلك كان الناس يحاولون العيش بسلام ما استطاعوا. أما فريد، فقد كان طفلًا في عالم مليء بالخوف والضجيج والصراخ.

كان والده رجلًا عصبيًا، صوته يعلو لأتفه الأسباب، ويده أسرع من لسانه. لا يرحم في انفعاله، ولا يعتذر بعد نوبات غضبه. ووالدته، رغم ضعفها، كانت تنقل توترها إلى كل شيء. كانت محطمة من الداخل، غارقة في همومها، وعاجزة عن تقديم الحنان لطفلها الأصغر.

أما فريد، فقد كان الأخير بين إخوته. وكان يشعر دائمًا أنه لا يمتلك مكانًا حقيقيًا في هذه العائلة. أخوه الأكبر كان يتلذذ بإهانته وضربه، يتفنن في إذلاله، بينما الجميع يصمت أو يضحك. لم يكن فريد يفهم لماذا يُعامل بهذه القسوة، ولا لماذا لا يدافع أحد عنه.

وكان أكثر ما يؤلم قلبه هو شعوره باللا أهمية. لم تكن أمه تسمعه حين يتحدث، ولم يكن أحد يهتم بما يشعر. حتى حين مرض في إحدى الليالي، وذهب إليها يشتكي من الحمى، ردت عليه بلامبالاة وتركته يرتجف على الأرض.

ومع الوقت، بدأ فريد يعاني من التبول اللاإرادي، نتيجة القلق والخوف المستمر. وكان هذا سببًا إضافيًا للسخرية منه من قبل أمه وأخيه. لم يفهم أحد أن ما يمر به هو نتيجة لما يعيش من رعب داخلي، فكانوا يظنون أن ذلك "كسل" أو "دلَع"، ويقابلونه بالضرب والإهانة.

في المدرسة، كان يأمل أن يجد عالمًا آخر. لكنه اصطدم بتجربة أكثر إيلامًا. فبسبب إهمال أمه، كانت رائحته في بعض الأيام منفّرة، وملابسه غير نظيفة. فصار هدفًا للتنمر والسخرية، وانزوى عن الجميع. لم يكن له صديق، ولا ملجأ، سوى حمام المدرسة، حيث كان يختبئ ويبكي.

لم يكن البكاء مجديًا، لكنه كان الشيء الوحيد الذي يستطيع فعله. كان يحمل كل حزنه في قلبه، ويغلق عليه الباب حين يعود إلى البيت. وفي صمته، بدأت تتشكل ملامح عالم داخلي مظلم، مزيج من خيال وخوف.

بدأ يرى أطيافًا في الزوايا، ويسمع أصواتًا غريبة في الليل. لم يجرؤ على الحديث عنها، لأنه يعلم أن أحدًا لن يصدق، أو سيسخر منه.

كانت طفولته كلها خوفًا، صمتًا، عزلة. لم يعرف من الطفولة سوى الاسم. لم يعرف من العائلة سوى الصراخ، ومن المدرسة سوى الإهانة. كان طفلاً يريد فقط أن يُحَب، أن يسمع كلمة طيبة، لكن لم يكن هناك من يقولها.

وهكذا، بدأت حياته. بدايةٍ قاسية، مليئة بالجراح، صنعت منه طفلًا صامتًا، هشًا، يحمل في داخله ما لا يمكن رؤيته في عينيه الصغيرة.

"ما إن يُنتزع منك الأمان، حتى ترى العالم بعين أخرى. لا شيء يعود كما كان، لا حتى نفسك."

الفصل الثاني

الهروب إلى العالم الداخلي

"أخطر الهروب، هو الهروب إلى الداخل. هناك حيث لا مخرج ولا من يسمع."

لم يكن فريد يعرف أن الألم يمكن أن يكون صامتًا. أن الحزن يمكن أن يتراكم داخله دون أن يراه أحد، حتى يصبح جبلًا يخنق أنفاسه في كل لحظة. بعد أن فقد الأمان في بيته والمدرسة، لم يعد يملك سوى مكان واحد يهرب إليه: عالمه الداخلي.

هناك، داخل عقله الصغير، بدأ فريد يبني عالماً جديداً. عالم لا يوجد فيه صراخ والده، ولا ضربات أخيه، ولا نظرات أمه الباردة. عالم لا وجود فيه للمدرسة التي تحولت إلى ساحة معركة نفسية، ولا للزملاء الذين يسخرون من رائحته أو ملابسه، أو من صمته الدائم.

في عالمه الخاص، كان فريد بطلًا خارقًا، لا يُقهَر، لا يبكي، لا يهرب. كان يملك القوة التي تُمكنه من الدفاع عن نفسه وعن الأطفال الآخرين الذين يتعرضون للأذى. في خياله، كان محبوبًا من الجميع، لديه أصدقاء يحبونه ويضحكون معه، ومعلمون يفتخرون به، وعائلة تحتضنه لا تؤذيه.

هذا الخيال لم يكن مجرد لعبة، بل صار وسيلة للبقاء. كل ليلة، حين يطفئ الجميع الأنوار، ويغلقون أبواب غرفهم، يبدأ فريد رحلته. يغلق عينيه، ويهرب إلى هناك، حيث لا أحد يلمسه، ولا أحد يصرخ عليه، ولا أحد يسخر منه.

ولكن، حتى الخيال له حدوده.

ففي الصباح، يعود إلى الواقع. إلى صحن الفطور الذى يملؤه الصمت والتوتر، إلى الحقيبة المدرسية الثقيلة، إلى الطريق الموحل، وإلى الوجوه العابسة في المدرسة. يعود إلى الواقع حيث لا مكان له، حيث هو زائد عن الحاجة، غير مرئي، غير مسموع.

أحيانًا، كان يتمنى لو يختفي. ليس موتًا، بل تلاشيًا. أن يذوب في الهواء، أن يصبح ظلًا لا يُلمَس، لا يُسأل، لا يُؤذى. وأحيانًا، كان يتخيل أنه يطير بعيدًا، فوق الجبال والبحار، إلى مكان لا يعرفه أحد، حيث لا يُسأل عن شيء، ولا يُحاسَب على أي شيء.

وفي إحدى الليالي، بعد أن ضُرب بشدة لأنه لم يُكمل واجباته المدرسية، جلس فريد في ركن غرفته، واضعًا رأسه على ركبتيه، يبكي
بصمت. ولأول مرة، همس لنفسه: "أنا مش غلطان... أنا مش سيء... أنا مش مستاهل كل هاد."

كانت تلك الجملة بداية إدراك بطيء، غير واضح، لكنه عميق. كأن صوته الداخلي الذي كان صامتًا دائمًا قرر أن يصرخ، أن يرفض، أن يقول "لا".

لكن حتى هذا الصوت، لم يكن قويًا بما يكفي بعد. ففريد كان لا يزال صغيرًا، هشًا، محاطًا بجدران عالية من الإهمال والخوف.

ومع الوقت، لم تعد أحلامه البريئة تكفي. صار عالمه الداخلي مشوشًا، مظلمًا في بعض الأحيان. فكلما حاول الهروب إليه، تسللت إليه ذكريات مؤلمة، وملامح غامضة، وكوابيس لا تنتهي. بدأ الخيال يتلون بالخوف. لم يعد عالمه مكانًا آمنًا بالكامل، بل صار جزءًا من معاناته. لكنّه ظل هناك، يهرب إليه، لأن الواقع أكثر قسوة.

وهكذا، صار فريد يعيش بين عالمين: واقع لا يُحتمل، وخيال لم يعد مُطمئنًا. وفي كليهما، لم يجد نفسه.

لكن ما لم يكن يعلمه بعد، هو أن هذا الانفصال عن الواقع، هذا الغرق في الخيال، هو وسيلته الغريزية للبقاء على قيد الحياة. كان عقله يحاول أن يحميه، أن يمنحه فسحة من الأمان، حتى وإن كانت مصطنعة.

ولم يكن يدرك، وهو لا يزال طفلًا، أن هذه الفسحة، هذا "العالم الداخلي"، سيصبح لاحقًا جزءًا لا يتجزأ من شخصيته، من طريقته في الفهم، والحب، والثقة، والخوف.

كان هروبه المؤقت اليوم، هو البناء النفسي الذي سيشكل مستقبله كله.

"الطفل الذي يتعلم أن لا أحد سيحميه، يصبح رجلًا لا يعرف كيف يطلب النجدة."

الفصل الثالث

جرح لا يُشفى

تحول البراءة إلى ألم أبدي

"أحيانًا لا تبدأ المعاناة عند الحدث... بل عند الصمت الذي يليه."

في تلك المرحلة من حياة فريد، لم يكن يبحث عن أكثر من متنفس، نافذة صغيرة يطل منها على عالم مختلف، بعيد عن جدران غرفته الخانقة وصراخ أهله الدائم. كان يعيش في وسط متقلب، تتقاذفه موجات الإهمال والرفض، وتسحقه فجوة آخذة بالاتساع بينه وبين عائلته. لم يكن له من صديق، ولا حتى يد حانية تسأله إن كان بخير.

وفي خضم هذا التيه، دخل إلى حياته ثلاثة شباب — أنس، وقصي، وعدي. كانوا أكبر منه ببضع سنوات فقط، يملكون عفوية جذابة، وشيئًا من التمرد الذي بدا لفريد وكأنه حرية.

سرعان ما وجد نفسه بينهم. نعم، كانوا أحيانًا يسخرون منه، يضحكون على كلماته أو حركاته، لكنه كان يتغاضى عن ذلك. لم يكن يرى فيها إلا محاولات للمزاح. كان بحاجة لأي نوع من التغيير، لأي نوع من الانتماء.

وذات يوم عرضوا عليه فكرة الانضمام إلى دورة لتعلم السباحة. كانت تلك فرصة ذهبية لفريد؛ ليرفه عن نفسه، ليبتعد عن أجواء المنزل الخانقة. ذهب إلى عائلته يطلب الإذن، وواجه في البداية الرفض المعتاد، لكنه لم يستسلم. ظل يطلب ويبكي حتى وافقوا.

بدأت الدورة، وارتسمت على وجه فريد ابتسامة نادرة. حمل حقيبته وذهب برفقة أصدقائه إلى النادي. هناك، سجل اسمه، وبدّل ملابسه، ووقف على حافة المسبح وهو يرتجف.

كان فريد أبيض البشرة، لطيف الوجه، يحمل من الجمال ما يكفي لأن يلفت الأنظار. دخل إلى الماء، ولكن ما إن بدأت الدروس، حتى فوجئ بكمية الرعب التي تسكنه.

لم يكن قد أدرك كم أصبح خائفًا حتى تلك اللحظة. لم يكن الماء وحده ما يخيفه، بل الحياة كلها. لم يتعلم السباحة، ولم يُكوّن صداقات جديدة، لكنه ظل يحاول — يحاول أن يبدو طبيعيًا، أن يلهو كما يلهو الآخرون.

ثم جاء اليوم الذي تغيّرت فيه حياته إلى الأبد.

جاء معهم إلى النادي شاب جديد اسمه "محمد"، زُعم أنه قريب لأحدهم.

كان يكبر فريد بعشر سنوات على الأقل، طويل القامة، عريض المنكبين، ووسيم بشكل لافت. نظر إلى فريد نظرات لم يفهمها، مليئة بالخبث والغرابة.

في البداية، بدا وكأنه يهتم بفريد، يلاعبه في الماء، يرش عليه الماء، يحاول تعليمه، يحتضنه حين يوشك على الغرق. لم يكن فريد معتادًا على الحنان، فشعر بشيء غريب داخله — هل هذا ما يشبه الحنان؟ هل أخيرًا هناك من يهتم لأمره؟

لكن تلك المشاعر لم تكن سوى مقدمة للاستدراج.

بعد انتهاء السباحة، دعاه محمد إلى غرفة الاستحمام بحجة عدم المرض.

اغتصب فريد، استغل محمد سذاجة فريد، وقام بفعلٍ بشع... فعل لا تحتمله روح طفل. سلبه الأمان، البراءة، والانتماء
لا يمكن للكلمات أن تصف تلك اللحظة. كان محمد يتلذذ، وكان فريد يموت. تركه محطمًا، مهشّمًا، بالكاد يتنفس، وهدده إن نطق. لم يفهم فريد ما الذي جرى بالضبط، لم يستوعب الفعل، لكنّه شعر بالاختناق، بالخوف، بالضياع.

ولكن لم ينتهِ الأمر.
بعد قليل، وفي غرفة تبديل الملابس، فعلها مجددًا. خلف الستائر، حيث لا عين تراه. كان أكثر قسوة، أكثر توحشًا، كان ألم فريد اكبر من يوصف.

لم يصرخفريد لم يقاوم، كان جسده مشلولاً، وروحه تائهة.
ولم يكتفِ محمد بذلك.

خرج إلى المسبح، وهناك كانت الضربة القاضية. فريد، المرتجف الخائف، فوجئ بأصدقائه — أنس، وقصي، وعدي — يضحكون. كانوا يعلمون. محمد أخبرهم. نظر إلى عدي الذي اقترب منه هامسًا: "كيف كان شعورك وأنت تُنتهك؟"

انكسرت الدنيا داخله. لم يكن فقط جسده منتهكًا، بل ثقته، وكرامته، وإنسانيته. هؤلاء الذين حسبهم أصدقاء كانوا شركاء في الجريمة.
عاد إلى منزله وكأن جبالًا جاثمة فوق صدره. دخل غرفته، وانهار باكيًا. لم يفهم تمامًا ما جرى، لكنه شعر أن العالم كله ضده. هل يخبر أحدًا؟ هل يصمت؟ هل سيتكرر هذا؟

خوفه من أهله ومن تهديد محمد وأصدقائه
كبّله و اختار الصمت، وتحوّل هذا الصمت إلى
وباء داخلي.
في تلك الليالي، لم يعد النوم آمنًا.
كلما أغمض عينيه، رأى محمد،
رأى الموقف، وشعر بذلك اللمس القذر، بذلك
التهديد غير المعلن، بذلك الشعور العميق
بالخذلان والخزي.
توالت الأيام، وكبر الصمت داخله،
لم يعد يثق بأحد، ولا حتى بنفسه،
كان يظن أن ما جرى خطأه، أنه السبب، أنه هو
من سمح لهذا أن يحدث.

أصبح أقل حديثًا، أقل حضورًا، أكثر شرودًا، في المدرسة صار أكثر انعزالًا وفي البيت، صار جسدًا بلا روح، بدأ الحزن يتجذر في ملامحه، حتى عندما يضحك الأطفال، كان فريد يبتسم دون أن تتحرك عيناه، كان يحمل سرًا أكبر من سنّه، عبئًا لا يُحمل، وجرحًا لا يلتئم.

وكان يهمس في داخله، دون صوت:

"ليش أنا؟"

"شو عملت عشان يصير فيني هيك؟"

"أنا غلط؟ أنا بكره حالي..."

وكان هذا، بكل قسوته، مجرد بداية

ومن هنا... بدأت رحلة الانهيار النفسي الحقيقي. بدأت العزلة، والخوف، والاكتئاب، والكوابيس.
ومن هنا... مات شيء في فريد. ربما طفولته، وربما ثقته. وربما... كل شيء.

"من يجرحه الغدر في الطفولة، يكبر وهو يشك في دفء كل يد تمتد له"

الفصل الرابع

الانغلاق الكامل

حين يصير الصمت هو الملجأ

هناك أوجاع لا تموت، بل تعود كلما ظننا أننا نسينا."

بعد ما مر به فريد في نادي السباحة، وهو لم يتجاوز عمر ال10 سنوات تغيّر كل شيء. لم يكن قادرًا على فهم ما حدث، أو لماذا حدث. كل ما عرفه أن شيئًا بداخله قد انكسر — شيء لم يجد له اسمًا، ولا تفسيرًا. كان الألم أكبر من سنّه، وأعمق من إدراكه.

في ظاهره، بدا الطفل كما هو، يتجول في الحارة، يشاهد الأطفال يلعبون: "غميضة"، "كرة قدم"، "الغلول"، و"السبع حجرات"... كانت ضحكات الطفولة تملأ الشوارع. لكنك إن دقّقت النظر، رأيت في الزاوية ظلاً صغيرًا. طفل يجلس وحده، منكسر النظرات، يحدق في الأرض كأنها الوحيدة التي تفهم وجعه.

كان فريد يمثل أنه بخير. يتصنّع الحياة بينما
لا يعرفون ما يثقل قلبه.
كان يحبس في داخله آلاف الأسئلة:
"لماذا أنا؟
ماذا فعلت لأستحق هذا؟
ماذا لو عرف أبي؟ أو أخي؟
لماذا كل هذا الخوف؟ ولماذا كل هذا الحزن؟"

كانت دموعه تفضحه أحيانًا، لكنّه اعتاد
إخفاءها كما يخبئ سرًّا ا مخيفًا لا يجرؤ على
مشاركته.

بداية جديدة... أم عزلة جديدة؟

في أحد الأيام، أخبرته عائلته أنهم سينتقلون إلى منطقة جديدة. شعر فريد بانفراجة صغيرة، بفرصة ربما يبدأ منها حياة مختلفة. مدرسة جديدة، أناس جدد، وبُعد عن أولئك الذين جرحوه. جهّز أغراضه بحماسٍ نادر، وساعد والدته بفرح في توضيب الكراتين ونقل الأثاث, لكن كعادته... الحظ لم يكن حليفه.

المنطقة الجديدة كانت شبه خالية. بيوت قليلة، وشوارع موحشة، وكلاب ضالة تملأ المكان ليلًا. لم يكن هناك أطفال، ولا أصدقاء، ولا ضحكات. كل ما كان موجودًا هو الصمت... والصدى.

وهكذا، تحولت آمال فريد إلى عزلة أشد. لم يكن المكان "بداية جديدة"، بل امتدادًا لوحدته، بطبعة أكثر قسوة.
مرت الأيام ثقيلة. ومع كل لحظة فراغ، كانت الذكريات تعود... تعود بقسوتها، بأصواتها، بملامح من أساؤوا إليه. لم يكن قادرًا على الهروب منها، فالعزلة كانت مرآةً لا تعكس سوى ألمه.

المدرسة الجديدة... والخذلان المستمر

مع بدء العام الدراسي، ذهب فريد إلى مدرسته الجديدة. شعر بالضياع، كما يشعر أي طفل يدخل عالمًا لا يعرفه. ظن أن بإمكانه أن يكوّن صداقات جديدة، لكن نظراته الشاحبة، وانكساره الداخلي، جعلاه غير مرئيّ. لم يقترب منه أحد. وكأن صمته كان كافيًا ليُبقي الآخرين بعيدين.

واستمرت الحال كما هي... حتى قرر ذات يوم أن يزور منطقته القديمة. لم يكن يتوقع شيئًا، فقط أراد أن يتنفس شيئًا مألوفًا. لكن الصدمة كانت بانتظاره هناك.

الخيانة الثانية... وكسرة جديدة

أولئك "الأصدقاء" الذين شهدوا جريمة محمد، لم يكتفوا بالصمت... بل تحدثوا.
نشروا القصة بين أولاد الحارة، ساخرين، ملوّثين التفاصيل، وكأن ما حدث لفريد كان نكتة تروى أو قصة تُستخدم للسخرية. لم يكن فريد يعلم بما فعلوه... حتى قرر في لحظة حنين غريبة أن يعود لتلك المنطقة.

كانت خطواته ثقيلة، لكن قلبه مفعم برغبة بسيطة: أن يرى ما إذا تغيّر شيء... أن يعود لطفولته ليومٍ واحد.

لكن ما إن دخل إلى الحارة القديمة، حتى شعر أن شيئًا ما ليس على ما يرام.

وجوه مألوفة، لكنها تنظر إليه بطريقة غريبة...
نظرات ليست بريئة.
اقترب منه ثلاثة أولاد — كريم، وحسن، وخليل
— يكبرونه قليلًا. كانوا يضحكون، يتبادلون
همسات، ثم بدأوا الحديث بأسلوب موارب:

”سمعنا القصة يا فريد"
شو صار وقتها؟ كيف كان شعورك؟
محمد كان ناعم معك؟"
ضحكهم لم يكن فيه أي تسلية، بل كان ممتلئًا
بنوايا خبيثة.
حاول فريد أن يبتعد، لكنهم لم يسمحوا له.

أحدهم أمسكه من ذراعه، والآخر أغلق الطريق
أمامه، أما الثالث فدفعه بخفة إلى أحد
المنازل المهجورة القريبة — بيت بلا أبواب،
خالٍ، لا روح فيه.

انهارت كل دفاعاته. لم يكن معه أحد. لم
يصرخ. لم يتحرك. كأن صدمته الأولى عادت
لتخدّره مجددًا.
لا تخاف... نفس اللي عمله محمد بدنا نعيده،
بس أحسن. بدؤوا بنزع ملابسه بالقوة، قطعةً
قطعة، ضاحكين، كأنهم يلهون بلعبة. حاول أن
يدفعهم، أن يصرخ، لكن صوته لم يخرج، جسده
كان يرتجف، وروحه تهرب إلى مكان بعيد، كما
كانت تفعل دائمًا، لم يكونوا في عجلة من
أمرهم، وكأن فريد مجرد جسد يُستخدم دون
أدنى اعتبار لما يشعر به، كانوا يلمسونه،
يتحرشون به، يرددون كلمات مقززة،
ويتصرفون وكأنهم يؤدون مشهدًا محفوظًا، كل
واحد منهم لعب دوره، بلا رحمة، بلا وعي،
وكأنهم يمارسون طقسًا مسموحًا لهم.
لا أحد جاء...
لا أحد سمع...
لا أحد أنقذه...

وبعد أن انتهوا، وقف أحدهم أمامه، وهو يقول بابتسامة باردة: "هسه صرت إلنا. وإذا بتحكي... بنرجع نعمل أكتر. ومو مرة، كل يوم"، وتركوه هناك، كما تُترك القمامة، دون حتى أن ينظروا خلفهم، فريد، نصفه عارٍ، نصفه مكسور، لا يدري من هو، انكمش في زاوية الغرفة، جسده يرتعش، وعيناه فارغتان لم يبكِ، لم يصرخ، لم يتحرك.

كل شيء كان صامتًا... ما عدا صوته الداخلي، المكسور، وهو يهمس:
"ليه؟ ليه كل هذا؟
هل أنا عايش عشان أكون كلبهم؟
هل أنا لعبة... ولّا بشر؟"

مرت الدقائق كسنوات وعندما استطاع أن يتحرك، مشى وحده، دون هدف، كان فتى بلا جلد، بلا هوية، بلا وجه.
"متى ينتهي هذا؟
متى يعود لي صوتي؟
من أنا أصلًا؟ هل أنا طفل؟ أم مجرد لعبة تُرمى وتُستَخدم وتُنسى؟"
أسئلة تُطارد قلبه كل ليلة، حتى أصبحت جزءًا من يومه، من كيانه.

"أن تسرق طفولة إنسان، هو أن تحكم عليه بالتيه الأبدي بين من كان وما يجب أن يكون"

الفصل الخامس

داخل العتمة

حين يصبح الألم رفيقًا دائمًا

ليست كل الجروح تنزف، بعضها"
"يختبئ في الروح ويُسمى اكتئابًا

لم يكن فريد يعلم أن الألم يمكن أن يتحول إلى حالة وجود، إلى شيء يسكن في كل جزء من جسده وروحه. بعد أن تكرر الاعتداء عليه، لم تعد الأمور كما كانت، حتى في صمتها ووحدتها. لم يكن الخوف فقط ما يملأ قلبه، بل شيء أعمق، شيء ثقيل لا يرى ولا يُلمس، لكنه موجود... دائمًا. كان ينام كثيرًا، أو على الأقل، يتظاهر بالنوم. يقضي ساعات طويلة على سريره دون حركة، يحدق في السقف كأنما يبحث عن تفسير لما يحدث داخله.

لم يكن يعرف أن ما يمر به يُسمّى اكتئابًا. لم يكن يدرك أن هذا الضيق الخانق، واللامبالاة التي تسكنه، هي أعراض شيء أعمق من مجرد حزن.

لم يكن يبكي كثيرًا كما في السابق، لكن هذا
لم يكن دليلًا على الشفاء، بل على الانطفاء،
دموعه جفّت، ولكن روحه كانت تنزف
بصمت. كان يشعر أن شيئًا في داخله مات لم
يعد يشعر بالحياة، حتى تلك اللحظات
الصغيرة التي كانت تجلب له بعض الأمل —
مثل بداية عام دراسي جديد، أو وجبة مفضلة
— لم تعد تثير فيه شيئًا. أصبح كل شيء
رماديًا، باهتًا، بلا طعم.

كان يجلس طويلًا دون أن يفعل شيئًا. لا
يلعب، لا يكتب، لا يرسم. فقط ينظر أمامه
كأنما يراقب شيئًا لا يراه أحد سواه. وبين
الحين والآخر، كانت تأخذه نوبات بكاء فجائية،
بكاء خافت، مختنق،

لا أحد يسمعه، ولا أحد يسأله عنه، ومع مرور الأيام، بدأت تظهر عليه علامات التعب الجسدي: نحف، شحوب، ودوائر سوداء حول عينيه. كان يذهب إلى المدرسة بجسد حاضر، لكن بعقل غائب. المدرسون ينادونه باسمه، لكنه لا يرد. زملاؤه يمرون بجانبه، كأنما هو جدار، غير مرئي.

كان يخشى النوم، لأن الكوابيس تلاحقه. وكان يخشى الاستيقاظ، لأن الواقع كان أكثر رعبًا. كان عالقًا في دوامة بين ما لا يريد أن يتذكره، وما لا يستطيع نسيانه. كل لحظة في يومه كانت ثقيلة، كأنها جبل يحمله وحده. كان ينهار أحيانًا في الحمام، يفتح صنبور الماء ليغطي صوت بكائه، ويجلس على الأرض حتى يشعر أن جسده توقف عن الارتجاف. لم يعد يشعر أنه طفل. كان يشعر وكأنه روح مكسورة تسكن جسد طفل، لا هي ميتة لترتاح، ولا حية لتعيش.

في تلك المرحلة، بدأت الأسئلة تأخذ شكلاً آخر:
“هل أنا السبب؟ هل أنا معطوب؟ لماذا أنا مختلف؟ لماذا لا أستطيع أن أكون مثلهم؟”
كان يشعر بالذنب، رغم أنه الضحية. وهذا ما جعله يكره نفسه أكثر. لم يعد يحب النظر إلى المرآة. لم يكن يطيق ملامحه، كأنما يحملها مسؤولية ما جرى.

وكان الأصعب من كل شيء هو شعوره بأنه وحيد تمامًا، وبأن لا أحد سيصدق ما مر به، ولا أحد سيهتم حتى إن صدّق. حتى اللّٰه، في لحظات اليأس، كان يسأله: “لماذا تركتني؟”

مرّت عليه لحظات فكر فيها بالهروب، أو حتى الموت. لكنه لم يملك الشجاعة لفعل أي منهما. كان ضعيفًا، مرهقًا، محطمًا، لكنه كان لا يزال يتنفس، فقط لأنه لم يجد وسيلة أخرى، لم يكن هناك من ينقذه، لا طبيب، ولا معلم، ولا حتى صدفة رحيمة. فقط أيام تتكرر، وألم يتجذر، ووحشة تزداد ظلمة، وهكذا أصبح الاكتئاب ظلّه، لا يفارقه، لا في اليقظة، ولا في الحلم.

مرت الأسابيع، والشهور، وفريد غارق أكثر في صمته.

لم يعد يضحك، لم يعد يسأل، لم يعد يهتم إن تأخر في المدرسة أو نسي واجبًا، كل ما كان يعنيه هو أن ينقضي اليوم بأقل قدر من الألم الظاهر.

بدأت علاقته بعائلته تتغير دون أن ينتبهوا صار ينسحب من الجلسات العائلية، يأكل بسرعة أو لا يأكل على الإطلاق، يتهرب من الحديث، من النظرات، من أي لحظة قد تتسلل فيها مشاعر قديمة إلى السطح. أمه كانت تلح عليه أن يبتسم، أن يخبرها بما يضايقه، لكنه كان يجيب بجمل قصيرة:

"ما في شي."

"تعبان شوي."

"مش جوعان."

ولم يكن أحد يعلم أن خلف هذه الكلمات البسيطة، كانت هناك صرخة مدفونة... صرخة تقول: "أنقذوني، قبل أن أغرق أكثر"

في المدرسة، لاحظ أحد المعلمين انعزاله. حاول التحدث معه، لكن فريد لم يعرف كيف يصف ما بداخله. لم يكن يملك المفردات، ولا الثقة،

كان ينظر إلى الأرض ويتمنى أن تنتهي المحادثة بسرعة. كان يخاف من نظرات الشفقة أكثر من أي شيء آخر لا يريد أحدًا أن يشعره بأنه ضعيف، رغم أنه بالفعل كان كذلك.

حتى اهتمام الآخرين كان يؤلمه. فكل مرة يسأله أحد "كيف حالك؟"، كان يشعر وكأن الإجابة الحقيقية لا تصلح للعالم. "أنا محطم" لا تُقال. "أنا لا أريد أن أعيش" لا تُقال. فكان يرد بـ "منيح"، ويمضي. ومع الوقت، بدأ فريد يطور عادة جديدة: مراقبة الناس. كان يجلس في المدرسة أو في الشارع، يراقب كيف يتحدثون، كيف يضحكون، كيف يعيشون بشكل طبيعي... ويتساءل في داخله: كيف يفعلون ذلك؟ كيف لا يحملون هذا الوزن داخلاً؟ هل أنا الوحيد الذي يشعر بأن العالم كله ثقيل؟

بدأ يشعر بالغربة ليس فقط عن الناس، بل حتى عن نفسه. لم يعرف من هو. لم يعرف ماذا يريد. لم يعرف إن كان يحب شيئًا بعد الآن. كان كالغريب عن جسده، عن روحه.

في أحد الأيام، وهو جالس في المدرسة، سمع أحد الطلاب يضحك بصوت عالٍ.
كانت ضحكة عادية، لكن في أذن فريد، كانت ضجيجًا لا يُحتمل. ضاق صدره فجأة. شعر أن الغرفة تضيق عليه. لم يعد يستطيع التنفس جيدًا. خرج إلى الحمام، أغلق الباب، جلس على الأرض وبدأ يرتجف.
كانت هذه أول مرة يشعر بنوبة هلع.
مرت دقائق وهو يقاوم الانهيار، يضغط على صدره، يحاول أن يقنع نفسه أن هذا مجرد وهم، أن لا شيء سيئًا يحدث الآن، لكن جسمه كان يقول غير ذلك. ارتجاف، ضيق تنفس، برودة، وغثيان.

وبعد أن هدأ قليلًا، غسل وجهه، ونظر في المرآة... لم يعرف من هذا الطفل الذي ينظر إليه، شيء واحد كان واضحًا له: أنه لم يعد كما كان. وأن الحياة، بعد ما مرّ به، لم تعد تبدو قابلة للعيش كما يظنها الآخرون.

قد لا ترى الألم في ملامحه، لكن"
"داخله حرب لا تهدأ

الفصل السادس

غُصَّة في الروح

حين يصبح الدمار هوية

في بعض اللحظات، لا نعرف" إن كنا ضحايا أم مجرد كائنات تحاول النجاة بما تبقى من إنسانيتها."

جاء اتصال إلى فريد ذات يوم، صوت على الطرف الآخر جمّد الدم في عروقه. إنه خليل... نعم، خليل. الاسم وحده كفيل بأن يعيد لفريد شريط الذل والانكسار، لكن المفاجأة كانت أبشع من النداء نفسه. خليل يأمره: "تعال فورًا إلى منزل أحد الشباب، وإن لم تأتِ خلال ساعة، سأفضح قصتك أمام الجميع. التهديد نزل كالصاعقة. شعر فريد أن الهواء قد انقطع من حوله، صدره ضاق حتى كاد ينفجر من ثقل الخوف والذل. ولكن ماذا عساه أن يفعل؟ كيف لطفلٍ يتيم من الحماية أن يرفض أمرًا كهذا؟ ما بين نار الفضيحة ونار الذهاب، اختار أن يحرقٍ قلبه بصمت، وسار إلىٍ مصيره... طاعةً لا عن رضا، بل منكسراً كجناح طائر سُحق في مهب العار.

وصل فريد، وهناك كان خليل، وإلى جواره شابٌ لا يعرفه. قال خليل ساخرًا: "أنت عروس الليلة."

امتلأت عينا فريد بالدموع، لكنه حاول أن يستنجد بإنسانيتهم، توسّل، سجد عند أقدامهم، نادى ضمائرهم، لكن ما من أحد أجابه إلا ضحكاتهم القاسية. انقضوا عليه كما ينقضّ الذئب الجائع على فريسته، مارسوا عليه أبشع أشكال الإذلال. جعلوه يُقبّل أقدامهم، وكلما انهار أكثر، كلما زادوا قسوتهم عليه.

وكانت تلك البداية فقط.

تكررت اللقاءات المشينة، مرة تلو أخرى، وأصبحت عادة قسرية. كان يُستدعى، لا ليُرى كإنسان، بل كدمية تُستخدم وتُلقى جانبًا. يتذكر حتى اليوم كيف كان كريم يستعرض "قدراته" الجنسية عليه أمام الباقين، وكيف كانوا يتحلّقون حول المشهد كالوحوش، ويمارسون العادة وهم يشاهدون جسده يُنتهك... ليس بفعل شهوة، بل بفعل لذة السيطرة.

مرت الأيام، ومرت السنوات على هذا الحال، وصار هذا الجرح جزءًا من جلد فريد. لم يعد يشتهي النساء، لم يعد يرى الفتيات كما يراهن زملاؤه. تحولت هويته الجنسية إلى ساحة معركة. كان كلما حاول الحديث مع فتاة شعر بالغربة، وبأن شيئًا في داخله يصرخ: "هذا ليس لك."

بدأ يشعر بأن شيئًا ما تغيّر. يتخيل نفسه مع رجال، لا نساء. تنكسر صورته في المرآة أمامه: "هل أنا طبيعي؟ لماذا أريد ما لا أريده؟ هل هذه مشاعري أم بقايا اغتصاب؟" كان يرى رفاقه يتواعدون ويتغزلون بالفتيات،

أما هو، فكان يحمل سؤالًا واحدًا: "هل سأتزوج يومًا؟ هل سأستطيع؟"

لكنه لم يكن يريد أن يبقى في هذا الجحيم. لم يرد أن يُمارس عليه شيء، ولا أن يُمارس هو شيئًا... لكنه في كل مرة كان يعود. كما يعود الجريح إلى سكينه. وبلغ فريد السابعة عشرة، دون أن تبقى أي صلة بينه وبين أولئك الذئاب. لكنه كان يعلم أن كل واحد منهم أخذ نصيبه من الألم في هذه الحياة، كما لو أن الحياة قررت أن تقتصّ له بطريقتها.

سبعة عشر عامًا من الوجع، من الليالي
التي كان فيها صوته مكتومًا، وأنفاسه
مخنوقة. أرق، كوابيس، قلة نوم،
انطفاء داخلي... لا شيء يُفرحه، ولا
أحد يُحرّكه. كان قاسيًا من الداخل،
هشًا من الخارج، كقشرة بيضة تخفي
عاصفة.لكنه رغم كل شيء، قاوم. بدأ
يهتم بنظافته، يمشي منتصبًا، يخفي
خلف لحية نمت باكرًا وجه الطفل
الذي قُتل منذ سنوات. ارتدى قناع
الشاب القوي، الصلب، الغامض.
أصبح يشبه رجلاً في الثلاثين، بينما
هو لم يتجاوز السابعة عشرة.

أصبح له بعض الأصدقاء، يخرج أحيانًا،
يضحك أحيانًا، يراقب جمال الحياة...
لكن الفرح كان دومًا ناقصًا. لأنه
ببساطة، لم يكن يشبه الآخرين. كان
يعيش بينهم، لكنه لم يكن منهم.
كان يبحث عن شيء واحد: السلام

النجاة أحيانًا لا تعني أن تعيش... بل"
".أن تستمر رغم الموت في داخلك

الفصل السابع

حين تُفتح نافذة في الجدار

بعض القلوب، مهما أُغلقت بإحكام،"
قد تنفتح فجأة على صوتٍ غير
متوقع...
لا لتُشفى، بل لتتذكّر أنها ما زالت
".تنزف

يحدث...

أن يزرع الله في قلبك حباً لأحدهم، لا تدري كيف، متى، لكنك تشعر به يتسلل إليك برفق، كما يتسلل النسيم في صباح ساكن

لا يكون حباً عادياً، بل شيئاً يشبه النعمة، يشبه الدعاء المستجاب دون أن تدرك أنك دعوت. تحبه، وكأن الله قد قال لقلبك هذا نصيبك، وهذا أمانك.

فتشعر أن وجوده في حياتك طمأنينة، سكينة، راحة، وأن عينيه وطن، وصوته يشبه السلام بعد تعب. ليس صدفة، فأنا لا اؤمن بالصدف، بل اختيار إلهي ناعم، كأن الله كتب لك هذا الحب بيده، ثم نفخ فيه من روحه.

ليكون حياً فيك، لا يموت...

لم يكن فريد قد شُفي، ولم يكن
يعتقد حتى أن الشفاءِ خيار مطروح.
كان يعيش ما يشبه السلام المزيّف؛
هدنة بينه وبين آلامه، لا أكثر.
بعينين حمراوين، ونظرات موارِبة،
كان فريد يختبئ خلف شخصية
صاخبة، مليئة بالمقالب والضحك
المفتعل، ليُبقي الجميع بعيدين عن
الداخل المتشظي فيه.
أدرك مبكرًا أن الاندماج الاجتماعي
لا يحتاج إلى الشفافية، بل إلى مهارة
التمثيل. وكان فريد ممثلًا بارعًا... أو
هكذا ظنّ. فالليل لا يُخدع، ولا
ذاكرته.

كل مساء، حين تهمد الضوضاء، يعود فريد إلى نفسه الحقيقية؛ وحيدًا، هشًّا، تغمره صور لم يطلبها، وأحاسيس لم يخترها. رغباته، التي لم يرد أن تكون، تقف على باب قلبه وتطرق بلا كلل. وكان جهاد النفس طويلًا، مرًّا، موحشًا؛ أقسى من أن يُقال، وأكبر من أن يُفهم.

وذات نهار عادي، حين كان لا يتوقع شيئًا، جاءت لحظة أخرى من لحظات القدر المتقلبة، حين تعطل مكبس الكهرباء في شقته. طلب منه الفني أن يستأذن الجيران في الطابق السفلي لإطفائه.

مشى بخطى معتادة، طرق الباب، ففُتح له على مشهد بدا بسيطًا، لكنه حُفر في ذاكرته كأول شرخٍ في جداره.

كان الواقف طفلًا... أو هكذا بدا. قصير القامة، وجهه ناعم ملوّن بالبراءة والحيرة. عيناه واسعتان، لا تنظران بثقة، بل بدهشة باهتة.

للحظة، شعر فريد أن الزمن تعثّر. أن أنفاسه ارتبكت، وأن قلبه خفق بطريقة نسيها منذ زمن. قال كلمته سريعًا، بصوت خفيض:

ممكن تطفئ المكبس لو سمحت؟"

ثم استدار

لكنه لم يذهب تمامًا.
عاد جسده إلى الشقة، أما روحه،
فقد بقيت هناك، معلّقة على نظرة
خاطفة لم يعرف كيف يفسرها.
شيء ما تحرك فيه... لا رغبة، ولا
حنان، بل شيء أكثر تعقيدًا من كل
ذلك. شيء كأنه... دعوة للانهيار أو
للنجاة، لم يكن يعرف.

ظل اسم الطفل مجهولًا لأيام، إلى أن
علم أنه "عدنان"، وله أخ أكبر منه، فبدأ
فريد بمحاولة مصادقة الأخ، باحثًا عن
وسيلة لفهم هذا "العدنان" الغامض.

عدنان لم يكن طفلًا في الحقيقة، بل أصغر من فريد بسنتين فقط، لكن خللًا في نموه الجسدي جعله يبدو أصغر بكثير. هذا التناقض بين المظهر والسن، بين البراءة والواقع، زاد فريد ارتباكًا وتوتّرًا. لم يفهم لماذا يفكر فيه. لم يعرف كيف يوقف هذا التفكير. لم تكن رغبة جنسية خالصة... ولا حبًا مألوفًا. بل نوع من الارتباط الحائر، كأن شيئًا فيه انجذب لصورة الطفولة التي لم يحصل عليها، أو لظلٍ نقيٍّ وسط ذاكرته المعتمة.

لكنه، رغم ذلك، لم يشعر بالطمأنينة. لم يكن مرتاحًا. كان يشعر وكأن هذا التقارب المحتمل سيفتح عليه أبوابًا كان قد أقفلها بإحكام. فعدنان لم يكن بداية جديدة... بل مرآة مؤلمة لما لم يُحلّ داخله بعد.

"في بعض الوجوه، نرى ماضينا لا مستقبلنا... ويكفينا ذلك لنبتعد"

ثمّة أشخاص يدخلون حياتنا لا ليغيروها فقط، بل ليذكرونا أننا ما زلنا أحياء رغم كل ما مرّ."

لم يكن فريد قد عرف الأمان الحقيقي من قبل، لا في بيتٍ ولا في حضن ولا حتى في مرآة. لكنه حين التقى عدنان، بدأ يفهم للمرة الأولى معنى أن يكون لك "ظهر"... شخص يمكنك أن تميل عليه حين تتعب دون أن تخشى أن يُسقطك.

توطدت الصداقة بين فريد وعدنان بسرعة مذهلة، كأن الأرواح كانت تنتظر هذا اللقاء منذ زمن بعيد.

صداقة لم تعكر صفوها المظاهر أو المصالح أو الفروق، بل صداقة نقية، نشأت من احتياج دفين، ومن جرحين وجدا في بعضهما ضمادًا مؤقتًا. كان عدنان صغير البنية، لكنه كبير الروح. في عينيه بريق صدقٍ ودفء، وفي ضحكته نغمة حياةٍ كان فريد يفتقدها منذ سنين.

كل يوم يمران به معًا، كان بمثابة إجازة من الأحزان لفريد. حديثٌ يمتد لساعات بلا ملل، فضفضة تتنقل بين الجدية والمزاح،

مشاحنات تنتهي دومًا بضحكة،
وكأن قلبيهما يعرفان أن هذه العلاقة
أكبر من أن تفسدها لحظة غضب.
لم يكن بينهما أسرار تُذكر، إلا السر
الأكبر... ماضي فريد، الذي بقي
خلف ستار الصمت. وعدنان،
بحساسيته العميقة، لم يُلح
بالسؤال. كان يعرف أن خلف
ضحكات فريد ظلالًا كثيرة، وأن هذا
الصديق الذي يجعله يضحك، هو
نفسه الذي يبكي حين يختلي
بنفسه. ومع ذلك، لم يطلب
تفسيرًا، بل منح فريد كل ما
يستطيع من أمان دون مقابل.

أصبح فريد يرى في عدنان ما لم يره في أحد من قبل. كان يعامله كأخٍ لم تلده أمه، بل أكثر... كقلبٍ ثانٍ يسكن خارج جسده. يشعر به إن تألم إن بعدت المسافات، ويحزن إن غاب، ويضيق إن ابتعد. وإن مرّ عليه يوم لم يرَ فيه عدنان، اختنق الهواء، وتعكرت روحه، وأصبح اليوم ثقيلاً ككابوس لا ينتهي إلا بلقائه.

وقد بلغ به التعلّق حدًّا لم يعد يحتمل فكرة أن يفقده أو يراه يتغير، أراد أن يظل عدنان كما هو قريبًا، مُحبًا، وفيًا، لا يرى سواه ولا يبتعد عنه. لكن هذا التعلق على صدقه، بدأ يخلخل العلاقة بينهما أحيانًا.

كانت تحصل مشاحنات من لا
شيء: تأخر عدنان بالرد، تغيّب
عن موعد، ضحك مع أحد غير
فريد... كل ذلك كان كفيلاً
بإشعال فتيل غيرة غير مبررة. ثم
يعودان، يعتذران، ويتعانقان،
ويضحكان على أنفسهما كما
يفعل الأطفال.
فريد لم يكن يتعلّق بعدنان فقط لأنه
صديقه، بل لأنه كان بمثابة الدواء
الذي خدر ألمه، أو ربما أعمق من
ذلك: عدنان كان الوعد الذي ظنه
القدر نسي أن يفي به. فبعد كل
الغدر الذي ذاقه، وبعد كل الجراح
التي حفرت روحه، أخيرًا وجد من
يداوي، من يسمع دون أن يحكم،
من يضحك معه لا عليه.

حتى أن فريد، في لحظات معينة، بدأ يشعر بشيءٍ يشبه الطمأنينة، شعور غريب على قلبه... كأن الحياة بكل قسوتها قررت أخيرًا أن تمنحه استراحة محارب قصيرة. وقد تماهى هذا الشعور مع ذكريات طفولته، فصار كل شيء يراه في عدنان يُذكّره بما افتقده صبيًّا: مشاهد الكرتون القديمة التي كانت تبكيه سرًا – "عهد الأصدقاء"، "أنا وأخي"، "سلام دانك"، كل تلك الأعمال التي كانت تحكي عن الصداقة والشجاعة والحماية. كان فريد يرى في عدنان ألفريدو الذي لم يحصل عليّه، أخًا وصديقًا وسندًا، يختصر كل ما لم يكن له.

كنتُ أظنّ أن الصداقة في أفلام"
الكرتون خيال، حتى عرفتُ عدنان. لكنه
لم يكن بطلًا خالدًا... فقط ضوءًا مرّ وترك
."أثره ثم اختفى

الفصل التاسع

بين أنياب العتمة

حين يختلط الجسد بالروح

هناك أوجاع لا تعرف اسمًا... لا"
تُشخّصها أجهزة، ولا تُفسّرها كتب
إنها تسكنك فحسب، وتأكلك
"بصمت

استمرت صداقة فريد وعدنان كما تُروى فقط في حكايات الخيال، كأنها امتداد لحلم قديم رفض أن ينتهي. صداقة لم تُدنّسها المصالح، ولا تسلل إليها الزيف، ولا لطّخها الخوف. بل كانت ملاذًا آمنًا في عالمٍ مليءٍ بالخذلان. كان كل يوم يمرّ يثبت لفريد أن عدنان لم يكن صديقًا عابرًا، بل حائطًا وُلد ليتكئ عليه، ونبضًا آخر يعيش به. لقد أصبح جزءًا لا يتجزأ من يوميات فريد، من ابتسامته وحتى تنهيداته الخافتة ليلًا.

مع عدنان، لم تعد الرغبات المظلمة
تأسر فريد كما كانت لم تختفِ،
لكنها لم تكن طاغية، كان يكفي أن
يرى ملامح عدنان المضيئة حتى
يخبو ذلك الجمر الكامن في صدره
كان يعرف جيدًا أن تلك المشاعر –
لو نطقت – ستكسر شيئًا في
العلاقة، وربما في عدنان نفسه وكان
مستعدًا أن يجاهد، أن يتألم، أن
يدفن كل ما يشعر به... فقط ليبقى
عدنان في حياته، كما هو. لم يكن
مجرّد صديق، بل كان مرآة الطفولة
المسروقة، وجبرًا لصورة الأخوة التي
لم يحظَ بها يومًا.

وفي ذروة هذا الصفاء العاطفي، وفي لحظة لم تكن تحمل نذيرًا لأي عاصفة، جاءت الريح الملعونة.

الأربعاء. الساعة الثانية عشرة ظهرًا. عام 2012.

يوم بدأ كأي يوم. مقالب بسيط في صديقه أسامة في المدرسة، ضحكات، ملاحقات، وهروب من الانتقام إلى الباص المدرسي، حيث جلس فريد متحمّسًا للعودة إلى البيت ليشارك عدنان بتفاصيل اليوم. لكن فجأة،

باغتته أعراض غريبة. خدر، حرارة، تعب جسدي غير مفهوم. لم يكنٍ مجرد إرهاق... كان شيئًا آخر، ثقيلًا، مخيفًا، كأن جسده ينطفئ من الداخل. أحس بجسده وكأنه يغوص في وحلٍ لا يُرى، كل طرف فيه يئن دون صوت. استلقى على سريره. حاول الاستحمام بالماءِ البارد. لا فائدة. لم يذهب إلى المدرسة في اليوم التالي. الألم يتضاعف. التعب يتراكم. عدنان بجانبه، قلق، مرتبك، لكنه لم يفهم حجم ما يحدث. ولا فريد نفسه فهم.

بدأت رحلة التيه الجديدة. مشافٍ، أطباء، فحوصات. كلٌّ يرمي تشخيصًا مختلفًا كمن يلقي بحجر في بئر معتم. اكتئاب؟ شحنات كهربائية؟ أمراض خبيثة؟ ربما... أو لا شيء من ذلك. وما بين المسكنات والمهدئات، أخذ جسده يذبل بصمت، كما لو أن كل الجروح القديمة قررت أن تنتقم مرة واحدة. كان فريد أشبه بكتاب تمزقت صفحاته الداخلية، بينما ظل غلافه الخارجي محافظًا على تماسكه الزائف. ووسط كل هذا، كان هناك سؤال لا ينفك يدور في رأسه:"هل ما يحدث معي مرض... أم لعنة؟ واقعٌ أم شيء آخر؟ هل أصابتني روح شريرة؟"

بدأ فريد يشعر بنوبات غريبة، كأن شيئًا من عالم آخر يتلبسه. صراخ، فقدان وعي، ضيق تنفّس. مرة في المدرسة، وأخرى أمام المعلمين، وثالثة في البيت. في كل مرة تنهشه عيون الشفقة، تنهار في داخله صورة الفتى القوي، وتنكشف هشاشته أمام الجميع. كان يرى الأعين من حوله، لا تملك تفسيرًا، فقط ترتبك، وتبتعد أحيانًا، وكأن مرضه يحمل عدوى الصمت.

"أكثر ما يؤلم، ليس أن تسقط... بل أن تسقط أمام من تحاول أن تبدو قويًا أمامهم"

انهارت قواه النفسية، وجسده تبعه في الانهيار بدأ يخسر وزنه، انطفأت نظرته، وأصبحت خطواته بطيئة كأنها تحمل عمرًا لا يحتمل. لم يعد ينام، لم يعد يأكل، كان يذهب إلى المدرسة بجسد سهران ليومين، وجسد جائع ليومين، أصدقاؤه يرونه، لكن لا أحد يفهمه، حتى ضحكته – تلك التي اشتهر بها – صارت شبحًا من الماضي بات كمن يحاول عبور صحراء ممتدة دون زاد، دون ظل، ودون بوصلة. "كان فريد كمن يمشي على جمر الحياة حافيًا... وكل من حوله، يعتقدون أنه يرقص."

في تلك الفترة، كان فريد مثل شمعة تنهار ببطء في غرفة مظلمة، دون أن يلاحظ أحد أن الظلام يزداد من حولهم. ومع كل هذا، لم يختفِ عدنان. كان حاضرًا، يحاول، يبتسم، يتشبث. لكن شيئًا ما في هذه التجربة كان يتجاوز قدرة البشر... ويتسلل من عالم الأحياء إلى أطراف عالم الجنون أو ربما ما هو أبعد من ذلك.

الفصل العاشر

بوابة الظلال

حين يتحول الواقع إلى كابوس

أخطر ما في الألم، أن"
تُطالب بإثباته لمن لا
"يشعر به

مرت أكثر من سنة على تلك الحالة الغامضة التي يعيشها فريد، نوبات متكررة من الإعياء، فقدان للوعي، انهيارات نفسية، وآلام لا تفسير طبي لها. جاب المستشفيات، دخل على عشرات الأطباء، لكن بلا جدوى. كل التحاليل سليمة، وكل الصور مطمئنة، ولكن الألم ينهش أعماقه.

لكن ما كان يؤلم أكثر من كل الأعراض... أن أقرب الناس إليه، عائلته، لم يصدقوه.

"إذا كانت عائلتي لا تصدقني، فلماذا أنا هنا؟ لماذا يجب أن أحمل الألم مرتين؟ مرة من المرض... ومرة من خذلانهم؟"

حين تتكسر الثقة في أقرب الدوائر، يصبح العالم كله مكانًا مخيفًا... خانقًا ومع هذه الخيبة، بدأت مرحلة جديدة... أشدّ ظلمة مرحلة تخلط بين الواقع والخيال، بين العقل والجنون، بين النفس والجن.

في البداية... كانت الأصوات. همسات تخترق ليله، تناديه باسمه، تضحك ثم تختفي، ظلال تتحرك على الجدران وتختبئ حين يدير رأسه، أنفاس ساخنة على رقبته في غرفة مغلقة، شعر فريد أنه يفقد عقله... أو أن هناك من يحاول انتزاعه منه.

ثم جاء الليل الأول الذي لم ينسَه أبدًا.

استيقظ مفزوعًا وهو يصرخ. جسده مبلل بالعرق. أحلامه لم تكن مجرد كوابيس... بل كانت غرفًا جديدة من الجحيم. امرأة بلا عينين تمشي فوق سقف غرفته وتحدّق فيه رغم عمى مقلتيها. كلب برأس إنسان ينهش أصابعه ويضحك بصوت والده. صرخة مكتومة في أذنه، كأن هناك من يزأر داخل جمجمته. في النهار، لم تكن الأمور أفضل، بدأ يرى الكيانات في يقظته، رأى ظلًا طويلًا يمتد من قدميه حتى سقف الغرفة يرى امرأة بثوب أبيض متهالك تقف أمام المرآة،

لكن انعكاسها لا يتحرك، رأى عيونًا حمراء تراقبه من نافذة الحمام... ثم تختفي حين يصرخ. في المدرسة، كان يسمع أحدًا يناديه من بين الصفوف... بصوت طفولي باكٍ... وعندما يستدير، لا يرى أحدًا. وفي ليلة مقمرة، كان يدخن على نأفذة غرفته، حين لمح كيانًا أسود يقف عند نهاية الزقاق، ثابت لا يتحرك. نظر إليه، فلم يرمش. وفي لحظة خاطفة... طار الكيان نحوه، ثم اخترق جسده! سقط فريد أرضًا، فاقدًا الوعي. أصوات غريبة خرجت من حلقه، كلمات مشوهة، صرخات ليست له.

عندما أخبر عائلته... لم يصدقوه، حتى عدنان، رغم قربه، لم يعرف كيف يتصرف، لكن فريد كان يغرق... يغرق في ظلام لا ضوء فيه.

بدأ يرى أشياء لا توصف: فتاة غريبة بعين واحدة، ترتدي فستان أبيض ملطخًا بالوحل، تمشي خلفه في كل حلم، أصوات أطفال يضحكون قرب سريره، كائن بعينين تتوهجان كجمر، يتدخرج من الحائط ويخدش جسده، ثم يختفي. الخوف صار جزءًا من يومه لم يعد يغمض عينيه النوم صار ساحة معركة. أحيانًا كان يرى نفسه يُقتل مرارًا وتكرارًا في الحلم. مرة يُدفن حيًا. مرة يُسحب من قدميه ويُرمى في بئر لا قاع له.ثم بدأت الكيانات تتحدث إليه.

صوت خشن يقول: "لن تنجو... أنت لنا الآن."

صوت طفلة تقول: "سألعب معك إلى الأبد."

وفي إحدى الليالي المظلمة... كان مستلقيًا حين شعر بشيء يمسك قدمه ويسحبه عن السرير، ضرب رأسه بالأرض فتح عينيه... ليجد كيانًا أسود ضخمًا يجثم فوق صدره.

اختنق... صرخ... ثم فقد وعيه.

أيقن أن الأمر تخطى حدود المرض كان هناك شيءٌ آخر، شيءٌ يطارده، شيءٌ يسكن حوله... وربما داخله. قرر أن يخبر عائلته بكل شيءمرة أخرى كان يبكي بحرقة، يتوسل، يصرخ. ومع ضغط عدنان وبعض الأقارب، وافقوا على أخذه إلى شيخ. وما إن بدأ الشيخ بالرقية... حتى خرج صوت آخر من فريد. عيناه انقلبتا، جسده بدأ يرتجف، ثم صرخ:
"اتركوني! أنا لا أريد الخروج!"
الشيخ تجمد مكانه، ثم صرخ: "هذا تلبّس كامل! لماذا لم تأتوا به من قبل؟ هذه حالة عميقة!"
ومن يومها، تغيّر كل شيء.

بعض الحروب لا تُخاض بالسيوف، بل بدموع"
".مكتومة على وسادة الليل
أن يُصبح عقلك هو المكان الذي تُطارد فيه،"
".هو أقسى أنواع الأسر
أن ترى ما لا يراه الآخرون، وتُكذَّب، هو الجنون"
".بعينه
هكذا عايش فريد رعبه... ليس رعب أفلام، بل
رعب روح، رعب من لا يُصدق، من لا يُفهم،
ومن لا يُشفى.

وكان هذا... مجرد بداية لما هو أدهى.

الفصل الحادي عشر

ساحة المعركة

حين يُقابل الجسد الكيان

"في بعض الحروب، لا يُحمل السلاح، بل يُحمل الجسد"

بعد كل ما مر به فريد من كوابيس وأهوال، لم يعد هناك من خيار،لم يعد الألم النفسي وحده هو العدو، بل أصبح هناك كيان ينام معه، يستيقظ قبله، يختبئ في عروقه... ويظهر حين لا أحد مستعد لرؤيته. لم يكن فريد يصدق تمامًا أنه بحاجة إلى شيخ دين، لكن الجسد الممزق كان يصرخ: "افعل أي شيء... فقط خلّصني".

وفي أول جلسة رقية، خرج الصوت، لم يكن صوته، ولم تكن عيناه شيء ما كان يتحدث من خلاله، شيء غاضب، متمرد، مخيف... يلعن، يهدد، يضحك، يبكي... صوت يخرج من فريد كأن جسده ليس له، كأن شيئًا ما استولى على هويته.

صُدم الشيخ. تراجع خطوة، وقال بصوت خافت:

"هذا الجسد فيه أكثر من روح... ليس شيطانًا واحدًا إنها حرب"

من هنا بدأت رحلة طويلة من الجلسات، كل جلسة كأنها معركة، وكل معركة تترك خلفها جرحًا جديدًا، جسديًا ونفسيًا. كانت الأعراض تشتد بعد كل جلسة قيء مفاجئ دون سبب، تشنجات حادة أثناء القراءة، نوبات بكاء هستيري... ثم ضحك شيطاني لا يُفسَّر, ألم في العمود الفقري كأن سكاكين تُغرز فيه، أصوات في الليل تقول: "لن تخرجنا بسهولة..."
كان الشيخ يقرأ عليه لساعات، يستخدم الماء المقروء عليه، زيت الزيتون، آيات الرقية، حتى بخور السدر. لكن فريد كان ينهار بعد كل جلسة كأن روحه تُسحب كل مرة... وكان يشعر أن شيئًا آخر داخله يقاوم، يرفض أن يغادر، يصرّ على البقاء.

مرت شهور على هذا الحال، كل أسبوع جلسة أو اثنتين. وكل جلسة تقلب فريد رأسًا على عقب: يستيقظ فجأة في منتصف الليل يصرخ، ينسى ما حدث في اليوم السابق، يرى وجوه الشيوخ الذين رقوه... في أحلامه وهم يُعذِّبون.

في أحد الأيام، وخلال جلسة مكثفة، صاح الشيخ: "اسمه كيرام... هو من الجن العاشق. يسكن الجسد منذ ثلاث سنوات... ورفض الخروج."

فتحت عيون فريد على اتساعها الاسم؟

الكيان له اسم؟ إنه حقيقي، حقيقي جدًا لم يعد هناك شك.

وقال الشيخ: "هذا الجني لم يدخلك صدفة. لقد تم استدعاؤه... هناك من سَحَرك. هناك من استهدفك."

هنا انهار فريد تمامًا إذًا كل ما شعر به كان حقيقيًا لم يكن مجنونًا لم يكن يتوهم بل كان مسحورًا... مُستهدفًا.

مرت الأشهر، تنقل بين أكثر من شيخ، كل منهم بطريقته، وكل جلسة تُرهق الجسد أكثر من التي قبلها. بعضهم كان مخلصًا، والبعض الآخر كاذبًا، يبيع الوهم مقابل المال.

لكن رغم كل شيء، كان هناك بصيص ضوء. بدأ فريد يشعر أحيانًا براحة قصيرة بعد بعض الجلسات. نوم لساعات دون كوابيس. يوم واحد بلا صداع. ابتسامة تعود مؤقتًا.

ولأول مرة منذ سنوات، بكى فريد في حضن أمه بكى كما يبكي الطفل الذي انهارت حصونه، وقال:**"أنا تعبت يا أمي... مش قادر أحارب أكتر من هيك"**

كانت تلك اللحظة كأنها النهاية لفريد.

"الرقية تُخرج الجني، ولكن من يُخرج كل هذا الوجع من القلب؟"

في خضم هذه المعركة غير المتكافئة بين الجسد المنهك والكيان الغامض، كان فريد يُقاد من يد إلى يد، من باب إلى باب، يبحث عن خلاص... أي خلاص.
زار ما يزيد عن عشرين شيخًا، بعضهم كانوا رجالا صالحين بحق، لكن الأغلب... كانوا تجار وجع، باعة كلام، يضعون القرآن على الرف، ويتعاملون مع المرضى كفرص مالية.
دخل على شيخ كان محاطًا ببخور كثيف، يضع يده على رأس فريد ويتمتم كلمات غير مفهومة، ثم يفتح عينيه ويقول:"فيك جن، والعلاج بـ500 دينار."
خرج فريد من عنده أشد خيبة من المرض نفسه. لم يكن المال هو المشكلة، بل استغلال ألمه، الشك في صدقه، التعامل معه ككذبة... كحالة يمكن ترويجها لمن يدفع أكثر.

شيخٌ آخر قرأ عليه من كتيب صغير، ثم قال: "ليس بك شيء... **كف عن التمثيل.**"

كان فريد ينظر في عيونهم بحثًا عن نور... فلا يجد إلا انكسارًا جديدًا، أن يُقال لك إنك تكذب وأنت تصرخ من الداخل... هو قتل صامت.
كل شيخ يضيف ألمًا جديدًا، كل جلسة تُرهق الجسد ولا تنقذ الروح.
وبين جلسة وأخرى، كانت الدراسة تنهار، التركيز يتلاشى، والذاكرة تهرب من فريد كما تهرب الطمأنينة من حلمه القديم.
فريد، الذي كان يُلقّب في مدرسته بـ"الذاكرة الحديدية"، أصبح ينسى اسمه أحيانًا، ينسى طريق الفصل، ينسى الكلمات وهو يتكلم.

أجّل دراسته في مرحلة التوجيهي، بعدما أصبحت المدرسة مكانًا ثقيلًا عليه، ونظرت المعلمين له مليئًا بالشفقة.
"مش هذا فريد اللي بنعرفه؟"
"كيف صار هيك؟"
لم يعرفوا أن ما تغيّر ليس فريد، بل كل شيء في داخله.

وكان ما يُدمّره أكثر من كل ذلك، كلام والده الذي تسلّل إليه أكثر من مرة، ظنًا أنه لا يسمعه:
"لو مش البنت انصابت، ما كنت عالجته... هو بتظاهر."
تجمّد قلب فريد في مكانه، كأن سهمًا أصابه في صدره لا في أذنه.
نعم، أخته التي تكبره ب 7 سنوات بدأت تظهر عليها نفس الأعراض... نوبات صراخ، كوابيس، وشرود لا يُفهم.
كان فريد يراها تتلوّى أمامه، وكان يعرف في قرارة نفسه... أن ما يسكنه انتقل إليها.
وهو السبب.

"أن تتعذّب... شيء وأن يُصاب أحد تحبه بسببك... شيء آخر تمامًا"

"كان جسدي يتحمّل، لكن قلبي... لا"
كل الذين اتهموني بالكذب، لم يروا ما أراه"
"حين أغمض عيني
كل الذين سخروا من ألمي، لم"
"يعيشوا يومًا في جسدي
وهنا فقط، بدأت العائلة تأخذ الأمر على
محمل الجدية وبدأت رحلة العلاجٍ الحقيقة،
لكن ليس حبًا في فريد... بل خوفًا على أخته.
حتى حين بدأت العائلة تتحرك، شعر فريد
.بالخذلان

أن تأتي النجدة متأخرة، وبعد أن يثبت
"المرض" نفسه بأجساد أخرى، فذلك يُشبه
أن تطفئ الحريق بعد أن يلتهم كل شيء.

جلس ذات ليلة، مُنكمشًا في زاوية غرفته، وأغمض عينيه. لكن لم يكن هناك نوم، كانت هناك صورة وجه الشيخ الذي اتّهمه بالكذب، وصوت والده يقول: "بتظاهر"، وصرخة أخته وهي ترتجف على الأرض.
ورغم كل شيء... جلس فريد في الليلة التالية، يقرأ الفاتحة على كأس ماء، ويشربها، يقرأ على الزيت، ويدهن جسده.
قال لنفسه:
"لن أنجو إن لم أقاتل... ولو كنت وحدي."
فكان فريد، رغم هشاشته، جنديًا لا ينكسر.

الفصل الثاني عشر

قرار الرحيل

حين لا يكفي الحب للنجاة

بعضنا يُكتب له أن يكون سبب النجاة للآخرين... لكنه لا يجد من ينقذه حين يغرق."

كان فريد يراقب أخته وهي تذبل شيئًا فشيئًا، ترافقه نوبات الصراخ والارتعاش التي تعرفها جيدًا، نوبات لم يعد وحده من يعانيها. الكيان الذي سكنه سابقًا بدا وكأنه تمدد خارج جسده... إلى قلب شقيقته.
لم يكن قلب فريد ليتحمل هذا المشهد. أن يرى أحدًا من عائلته يمر بما مرّ به – كان هذا أكثر ألمًا من كل ما عاشه. وهنا بدأ فريد رحلة جديدة، ولكن هذه المرة ليس بحثًا عن علاج لنفسه، بل من أجل شفاء أخته.
سعى فريد بين الشيوخ والرقاة، طرق كل باب، دخل كل غرفة يظن أن فيها رجاء لكن الحقيقة التي اكتشفها كانت مرة: معظمهم تجار آلام، باعة أوهام يبيعون الماء المقروء عليه بسعر الذهب، يكذبون على الضعفاء، يبتزون الخائفين، يسألون عن المال أكثر مما يسألون عن الألم.

كان يرى نظرات الشفقة تتبدل إلى طمع، والآيات تتحول إلى تعاويذ بلا روح. ومع ذلك لم يتوقف من أجل أخته فقط، ظل يقاتل.
وبفضل الله أولًا، ثم بجهده وإيمانه، بدأت حالتها تتحسن. شُفيت... أو على الأقل، هدأت النوبات، وعاد لون الحياة إلى وجهها.
لحظة نادرة من الانتصار لفريد.

لكن كل ذلك لم يكن كافيًا ليشفي جراحه هو، فريد الذي أنقذ أخته... لم يستطع إنقاذ نفسه، كانٍ ما يزال يطارد من الداخل، ما يزال ينهار ليلًا بعد كل نهار صامد.
ومع الوقت، بدأ يشعر أن بيته نفسه لم يعد مأوى. كانت أصوات الشك تتسلل إلى أذنه من بعض أفراد عائلته، حتى والده – الذي كان من المفترض أن يكون السند – سمعه مرة يقول: "فريدٍ يتظاهر، لولا أخته لما فكرت بعلاجه أصلًا"

كان هذا الطعنة الأقسى، لم يعد للبيت طعم، لم يعد للحياة نفس.

لكن رغم كل شيء، لم يرضَ فريد أن يترك نفسه للضياع. قرر أن يكمل تعليمه، حتى وهو منهك. حول دراسته إلى نظام الدراسة من المنزل، واجتهد، درس أربع فصول متواصلة دون توقف، تحدى الإعياء، والكوابيس، والشتائم، و... نجح.

نجح فريد في التوجيهي بعد أن تأخر عن جيله ثلاث فصول – سنة ونصف – لكنه نجح رغم أنف العالم.

حصل على الشهادة التي ظن الجميع أنه لن يراها، وسجل في الجامعة، وبدأ أول فصل دراسي، محاولا بناء حياة جديدة.

لكن حالته النفسية والصحية كانت تتدهور أكثر، الضيق لا يزول، الكيان لم يرحل.

فقرر قرارًا مصيريًا... **أن يرحل**.

أن يترك مدينته، منزله، كل ذكرياته القديمة، كل الناس الذين عرفهم، بمن فيهم عدنان.
قرر أن ينتقل إلى مدينة تبعد 400 كيلومتر – أربع ساعات بالسيارة – هربًا من كل شيء.
كان قرارًا صعبًا. قلبه يتقطع كلما فكّر بعدنان. كيف لن يراه كل يوم؟ كيف سيشاركه ضحكاته، دموعه، مخاوفه؟ كيف سيتحدث إليه دون أن ينظر إلى عينيه؟ كيف سيسنده وهو بعيد عنه؟
لكن الرحيل كان الحل الأخير.

السبت، 17-9-2016
كان صباح الرحيل قاتمًا فريد جمع أغراضه، حزم حقيبته، ألقى نظرة أخيرة على غرفته... كانت نظرة وداع، وداع لكل الذكريات، الأحلام المحطمة، الكوابيس التي لا تنتهي.

ودع عائلته، ذرفوا بعض الدموع. رغم الفتور، كان في القلب شيء من الحنين.
خرج من البيت ليجد عدنان ينتظره أمام الباب، وعيناه محمرتان.
مشيا معًا نحو محطة الباص. لم يتبادلا الكثير من الكلمات. فقط دموع، دموع تشهد على كل لحظة عاشاها معًا.
وصل الباص. وقف فريد أمامه. احتضن عدنان كما لم يفعل من قبل. حضن دام عشر دقائق. لم يكن وداع جسد فقط، بل وداع روح لروح.
ركب الباص، ولم تصعد روحه معه، بقيت عند عدنان.
كان فريد ينظر من نافذة الباص، ودموعه تنهمر بهدوء. تهمس لنفسه: "يا رب، لا اعتراض على حكمك، لكن أقسم أني تعبت... أن هذا الجسد ما عاد يحتمل" وكان قلبه يرد عليه: "القادم أقسى"

وصل إلى المدينة الجديدة، وكان صديقه فارس في انتظاره، أخذ بيده إلى الشقة الجديدة، فتح فريد الباب، ودخل، سكن غريب... جدران صامتة... رائحة الوحدة.

لكن شيئًا آخر كان هناك. إحساس داهمه فور دخوله: "كأن كيانًا متوحشًا يسكن هنا"

ضحك فريد ساخرًا: "**عدنا من جديد**..."

رتب أغراضه. أخذ حمامًا ساخنًا. اتصل بعدنان ليطمئنه، ثم اتصل بعائلته.

في اليوم التالي، بدأ يومه الجامعي الأول.

تسجيل، محاضرات، طلاب جدد. كل شيء بدا طبيعيًّا... خارجيًا فقط.

لكنه كان يعلم في داخله... أن الأمور لن تبقى كذلك.

"بعض الأماكن لا تتركنا... حتى لو غادرناها إلى الأبد"

وكان فريد... قد بدأ فصلًا جديدًا من المعاناة، في مدينة جديدة، مع كيان قديم.

الفصل الثالث عشر

الغربة التي تأكل من الداخل

الألم ليس في الغربة،"
بل في أن تبقى وحيدًا
حتى وأنت بين من
تحب."

كانت المدينة الجديدة جميلة إلى حد ما، ولكن فريد لم يرَ شيئًا منها سوى البحر... ليلًا... مع كوب من القهوة وعلبة سجائر لا تفارقه. كان يتأمل البحر في سكون، يراقب الأمواج ترتطم بالشاطئ وكأنها تقص عليه تقلبات حياته، تحاكي الاضطراب الذي في داخله، وتعيد عليه السؤال ذاته كل ليلة: "كيف وصلت إلى هنا؟"

كان فريد يحاول أن يفعل أي شيء لينسى، لينسى ولو جزءًا بسيطًا من حياته الماضية. ولكن، كيف ينسى من لا يُنسى؟ كيف يهرب ممن يسكن ذاكرته؟ وأي نعمة يمكن أن تكون للذاكرة القوية إن كانت لا تترك له لحظة سلام؟ كانت بالنسبة له نقمة، ابتلاء من اللّٰه ليختبر صبره، لتُبقي جراحه مفتوحة تنزف دون توقف.

كل يوم، كان فريد يذهب إلى البحر وحيدًا، يجلس على ذات المقعد، يُقلب الأسئلة في ذهنه: ما الخطوة القادمة؟ ما الطريق؟ إلى أين أذهب؟ لكن الأسئلة كانت بلا أجوبة... فقط دوائر من الحيرة تدور في رأسه.

واستمرت حياته على هذا الحال: مزيج من ألم الوحدة وملل الجلوس الطويل بلا رفيق... والماضي.

الفراغ قاتل... لأنه يعطيك الوقت الكافي لتتذكر كل شيء. الجيد والسيئ. الماضي، الحاضر، حتى المستقبل الذي لم يأتِ بعد. وكان عدنان... عدنان فقط هو البلسم الوحيد لهذا الجرح، لم ينقطع الاتصال بينهما يومًا، في كل مساء يتحدثان لساعات، عن كل شيء ولا شيء. ذلك الهاتف كان مقاومة فريد الوحيدة في وجه هذه الغربة.

لكن... هل جربت أن تفعل كل شيء لوحدك؟ أن تحضّر طعامك بنفسك، تأكله بصمت، تغسل ثيابك، تنظف غرفتك، تنام وحدك، تستيقظ وحدك، تبكي وحدك، تضحك وحدك؟ أن لا تأكل لأنك سئمت الأكل دون صحبة؟ أن لا تفعل شيئًا لأنك ببساطة وحيد؟ الوحدة قاتلة... موحشة... كأنك في سجن بلا قضبان. متاهة داخلية لا تعرف فيها الاتجاهات. لا أحد يسمع صوتك، ولا حتى صوت صمتك.

الغربة ألم مضاعف، خاصة حين تسمع صوت أمك المتعبة من بعيد، أو والدك الحزين، أو أختك المنكسرة، أو صديقك المهزوم... ولا تقدر على فعل شيء.

استمرت الحياة على هذا النحو: جامعة، عمل كعامل توصيل، ثم نوم. والشيء الوحيد الثابت... الشعور بالوحدة، والعلاقة التي بدأت تتوتر بينه وبين عدنان بسبب البعد والتقصير والانشغال.

وبالطبع، الكيان المظلم ما زال هناك لم يرحل بل ازداد جشعًا، كأنه يستنزف ما تبقى من طاقة فريد، يقتات على وجعه وألمه.
بدأت الأمور الخارقة تعود: الأصوات تهمس من حوله، الكوابيس تُلاحقه، الأيادي الخفية تضربه، يناديه أحدهم في الليل فيرد ساخرًا: "ماذا تريد يا هذا؟". إذا رأى خيالًا يقول بتعب: "أوف... لقد سئمت منكم..."

ثم جاء اليوم الأسود: 9-3-2018.

شجار كبير بينه وبين عدنان. تراكمات قلب فريد انفجرت الإهمال، البعد، التجاهل... كل شيء تفجر في لحظة، كان عدنان بالنسبة له ظلّه، روحه، كيف يقسو عليه؟

قال له عدنان كلمات حادة، لاذعة، لا تُنسى:
"نحن لسنا أصدقاء، هذه صداقة فاشلة، اذهب بطريقك ودعك مني."
انتهت المكالمة. وأغلق فريد الهاتف... قلبه محطم. دموعه تسيل ولا يستطيع أن يفهم ما حدث. كيف؟ لماذا؟ هل هو السبب؟ هل الجميع يرحل عنه؟
بدأت قطيعة استمرت شهرًا. ولكن... يا له من شهر، شهر أسود. قاسٍ. موجع.
كان فريد يعيش في الماضي والحاضر الموحش، والمستقبل المنطفئ. كان عدنان قد غاب... والكيان لم يغب بل صار أقوى.

خلال هذا الشهر، فكر فريد مرارًا بإنهاء حياته لم يعد يحتمل، وبدأ ينجرف نحو المنكرات، نحو الحرام، بحثًا عن نسيان مؤقت، عن راحة مصطنعة.

أدمن المشروبات الروحية، دخّن بشراهة. ثم... بدأت رغباته الدفينة تعود. عاد فريد المنكسر، الضعيف، المنساق... يرتاد أماكن مظلمة، يختلط برجال غرباء، تتكرر الأفعال نفسها التي كرهها، ثم يبكي بعدها بلا توقف.

لم يكن يعلم هل ينتقم من نفسه؟ هل يعاقبها؟ أم أن الحياة ببساطة قررت ألا تريه السعادة أبدًا؟

كل يوم كان ينهار أكثر، كل فعل يفعله كان يعيده للهاوية وكل بكاء بعد الفعل كان يزيد ألمه ضعفًا.

عاد فريد إلى نقطة الصفر، منهزمًا، منكسِرًا، فاقدًا ثقته بنفسه، كأنه يدور في حلقة لا تنتهي... حلقة مصيرها الهلاك. وكأن ما فعله لم يكن نتيجة ضعفه فقط، بل طلبه اللاواعي للألم.

لم يكن فريد يهرب من الإهانة... بل صار يطلبها.

هنا، أدرك شيئًا مرعبًا: لقد أصبح يعاني من نوع من الاضطراب النفسي العميق يُعرف في بعض الأدبيات النفسية بـ"السليف" – وهو الانجذاب المؤلم للإذلال والإهانة في العلاقات، نوع من العبودية النفسية التي تبحث عن العنف كوسيلة للشعور بشيء... أي شيء.

كانت هذه العلاقة المرضية بالألم، امتدادًا لجروحه القديمة. وكأن عقل فريد الباطن قال له: "أنت لا تستحق الحب، بل العقوبة."

عدنا من بداية أليمة إلى نهاية أشد إيلامًا، اقترب من حافة الهلاك.

ثم، قبل انتهاء الشهر، نهض فريد فجأة، كأن شيئًا في داخله انفجر. أدرك حجم ما فعله.

صرخ في نفسه: "لقد هززت عرش الرحمن...!"

بدأ جلد الذات، تأنيب الضمير، كأنه نار تأكل قلبه حيًّ ا شعر بانكسار لم يذقه من قبل.
لم يكن فريد كما كان... لقد انكسر إلى حدٍ لم يعد فيه صوت للنجاة... لكن داخله، ما زال هناك بصيص صغير... لن يُطفأ.

الفصل الرابع عشر

لحظة الاعتراف

أقسى أنواع الوحدة... أن"
تحمل حربًا بداخلك ولا
يشعر بها أقرب الناس
".إليك

كانت ليلة باردة، ونسيم البحر يُحرك أطراف الأشجار كأن الطبيعة نفسها على وشك أن تبوح بسر دفين.
التقيا قرب البحر، في ذات المكان الذي اعتاد فريد أن يجلس فيه كل مساء، ذلك المقعد الحجري المطلّ على الموج.
لكن هذه المرة، لم يكن وحده، جلس عدنان بجانبه، يتأمل صديقه الذي بدا شاحبًا، متعبًا... لكنه يحاول أن يبتسم.
قال فريد بصوت خافت وهو يحدّق في البحر:
"عدنان... في شي لازم أقوله... من زمان وأنا حابب أحكيه... بس ما كنت قادر."
أجابه عدنان بضحكة خفيفة:
"شو القصة؟ شكلك جاي تحكي سر دولة؟"
ابتسم فريد بسخرية، ثم صمت.
ثوانٍ مرت وكأنها دهر. قلبه كان يخفق بقوة تكاد تسمع دقاته.

أشعل سيجارة... نفث الدخان ببطء، يراقب تلاشيه مع الهواء، ثم همس: "من ورا الضحك اللي كنت تشوفه فيني... في عالم ثاني. عالم ما كنت تتخيله"

التفت إلى عدنان، نظر في عينيه مباشرةً، وكأنها المرة الأولى التي ينظر فيها إليه من دون أقنعة.

قال بصوت مرتجف: "أنا... أنا مش طبيعي يا عدنان... مش زي باقي الشباب... رغباتي... مش مثل رغباتهم"

سكت، وكأن كل كلمة خرجت كانت تُقطع من داخله.

عدنان لم يتكلم... فقط نظر إليه، صدمة عميقة على وجهه، لكنه لم يتحرك.

أكمل فريد، هذه المرة بصوت أكثر هشاشة، كأن شيئًا ينكسر بداخله مع كل حرف: "صار لي سنين بحارب... بخبي... بقاوم. كل يوم أصحى وأنا حاقد على نفسي، خايف منها...

كل يوم أمشي بالشارع وأنا حاسس إني عار...
كل لحظة وأنا جنبك كنت أحاول أكون طبيعي،
أكون قوي، أكون مثل ما لازم أكون... بس
الحقيقة؟ أنا محطم يا عدنان... تعبان...
موجوع."

تنهد بعمق، وأخفض رأسه، وهو يهمس: "أنا
ما اخترت أكون هيك... أقسم بالله ما اخترت...
بس شو بدي أعمل؟ أقتل نفسي؟ أخبي وجهي
طول عمري؟ كل شي جواي صعب، صعب
لدرجة بتوجع النفس من غير أي إصابة."

صوت فريد انكسر مع آخر كلمة، ولم يعد قادرًا
على التماسك، فنزلت دموعه، واحدة تلو
الأخرى، صامتة... حارقة.

عدنان ما زال في مكانه... ينظر إلى فريد وكأنه
يراه لأول مرة.

هز فريد رأسه بسرعة، مقاطعًا:
— "ما بدي شفقة، ما بدي تحكيلي إنها مرحلة وبتعدي، ما بدي تقوللي إنك حاسس فيي... لأني متأكد إنك مش قادر تتخيل اللي عشته ولا اللي بعيشه."
صمت عدنان للحظات. ثم قال، بصوت مبحوح:
"أنا... مصدوم"
رفع فريد نظره نحوه، عيناه ممتلئتان برجاءٍ لا يُقال.
تابع عدنان:
"مش مصدوم منك... مصدوم عليك. كيف قدرت تتحمل كل هاد لحالك؟ كيف قدرت تضحك، تمزح، تنقذني... وأنا ما كنت شايف شي؟"
ابتسم فريد بخفة، وقال:
"لأني كنت بحتاج أضحكك، حتى ما تنتبه لدموعي."

ثم أضاف بعد لحظة صمت، والدموع ما زالت تنهمر: "كنت بخاف تفكرني غريب... أو تكرهني... أو تشوفني إنسان مشوه، مدّ عدنان يده ووضعها على كتف فريد. لأول مرة، لا ليمازحه... بل ليطبطب على روحه.

"أنا مش فاهم كل اللي حكيتُه... بس فهمت شغلة واحدة: إنك إنسان قوي بشكل مش طبيعي. وأنا آسف... آسف لأني ما كنت دايمًا جنبك."

ارتعشت شفتا فريد وهمس:

"ما في أسوأ من إنك تكون عايش ومفكر إنه لو حدا عرف حقيقتك... رح يكرهك."

رد عدنان بحزم، ونظره لا يفارق عيني فريد: "أنا ما رح أكرهك... مستحيل أكرهك."

لحظة صمت ثقيلة، خففها نسيم البحر الذي مرّ بينهما وكأنه يربت على هذا الاعتراف النادر ربما هذه كانت المرة الأولى التي شعر فيها فريد ببعض الخفة... قليل من الهواء دخل رئتيه، بعد سنوات من الخنق الداخلي.

لكن ما لم يكن يعلمه فريد... أن هذا الاعتراف، رغم تقبّله الظاهري، سيكون له تبعات لاحقة في العلاقة بينه وبين عدنان. تبعات... لن تُمحى بسهولة.

الفصل الخامس عشر

انعكاسات على مرآةٍ مشروخة

"كنتُ شيئًا... وأصبحتُ شيئًا آخر تمامًا. لكن لا أحد يرى ذلك... لأنني لم أخبر أحدًا من قبل."

لم يكن التغيّر في شخصية فريد لحظةً، بل كان سنوات طويلة من الانكسار المتراكم، كما تنفصل طبقات الحائط القديمة دون أن يلاحظ أحد حتى تسقط بالكامل.

كان فريد يومًا فتى منطويًا... خجولًا... لا يرفع عينيه في الحديث، لا يملك الجرأة أن يبدأ حوارًا. ثم انقلب إلى شخصية اجتماعية، مرحة، لا يخلو مجلس من صوته، حاضر دائمًا في المزاح والمقالب كان محبوبًا... بل كان محورًا.

ثم... عاد منطويًا، لكن بانكسارٍ أعمق من البداية، انطواء هذه المرة لا يشبه الخجل، بل يشبه الانسحاب من العالم.

يتذكر فريد بمرارة كم كان ذكيًا... كيف كان يُبهر معلميه بسرعة الحفظ، يقرأ الصفحة مرة أو مرتين ثم يرددها كأنها كُتبت في قلبه لا في دفتره. أما الآن؟ نسي اسمه في مرة حرفيًا، نسي أين وضع مفاتيحه، نسي حتى كيف بدأ يومه، كأن ذاكرته تُعاقبه... أو تتآمر عليه.

لكن... رغم كل ما اختفى، هناك من فريد ما بَقي.
بعد المراهقة، ووسط الألم، صقلت الأيام قلبه وعقله. صار رجلًا صاحب موقف، لا يخذل أحدًا، لا يتخلى عن صديق، لا يقف متفرجًا إن احترق بيت غيره. كانوا يسمونه أصدقاءه "الأب الروحي"... ليس لأنه الأكبر سنًا، بل لأنه الأثقل حكمة، والأسرع في الحضور، والأشد حزمًا عند الشدائد.
أصبح فريد حكيمًا، مفكرًا، مبدعًا في العمل... يتحمل المسؤولية قبل أن تُطلب منه. مؤدبٌ، خلوق، محبوب... وجهه بشوش حتى لو كانت النار تأكل قلبه، لا يرد سائلًا، لا يتهرب من النجدة، لا يستسلم أبدًا.
كان طموحًا، مثابرًا، يملك روحًا قيادية فريدة. صاحب مقالب وضحكات مجنونة، وفي الوقت ذاته... رجل يخفي خوفه باحتراف، ممثلٌ بارعٌ في الحياة، لا على المسرح.

شخصيته كانت مزيجًا من التناقض: قوة وضعف، جرأة وخجل، مرح وحزن. ولكن كل من عرفه... أحبه. أحبه لأنه كان حاضرًا، لأنه يُعطي ولا يسأل، لأنه رغم كل شيء... لم يتغير قلبه.

"أعترف... كثيرٌ مما أظهره هو تمثيل. ولكن أليس فينا جميعًا تمثيلٌ لننجو؟"

كان يتقن لعب الأدوار: صديق الجميع، القائد، المنقذ، الحكيم. لكنه في الداخل... كان الطفل نفسه، ذاك الذي يخاف الظلام، ويختنق في الوحدة، ويبحث عن يد تطمئنه فقط.

لقد أخذت الحياة من فريد أشياء كثيرة... منها ذاكرته، صفاءه، وحتى بريق عينيه. لكنها لم تأخذ منه شيء واحد... صموده.

ذلك الصمود... الذي لا يُرى، لا يُكافَأ عليه، لا يُدوَّن، لكنه موجود.

وهو وحده... ما أبقى فريد حيًا.

"أنا لا أعرف من أنا تمامًا الآن...
لكنني أعرف من لا أريد أن أكون.
ولن أعود إليه أبدًا."

الفصل السادس عشر

الندبة التي لا تلتئم

بعض الفُقد لا يُعوض،"
وبعض المسافات لا
تُقاس بالأمتار، بل
بخيبات الظن التي
صنعتها."

أنهى فريد دراسته الجامعية أخيرًا، وعاد إلى منطقته يحمل شهادة البكالوريوس في أحد تخصصات تكنولوجيا المعلومات. عاد بالجسد، لكنه ترك روحه في الطرقات، تركها في البحر الذي احتضنه كل ليلة، وفي الغرفة التي شهدت نحيبه، وفي الرسائل التي لم تُرسل، والنداءات التي لم تُسمع.

عاد فريد كما يخرج الجندي من معركة خاسرة: واقفًا، نعم، لكن منهكًا، متآكلًا، متألمًا حد الفراغ. لا يملك من الحياة سوى الشهادة... ولا يملك من نفسه سوى القليل. عاد بلا ابتسامة، بلا نكهة، بلا صوت. عاد جسدًا يشبه فريد... لكنه لم يكن هو.

في استقباله، كان عدنان، وكان أهله، وكان السؤال في عيون الجميع: ما بك؟ لكنه لم يجب. لم يكن هناك جواب، فقط صمت ثقيل، وكلمات قليلة، ونظرات حائرة.

عاد فريد قليل الكلام، كثير الانعزال يجلس في غرفته بالساعات، لا يخرج إلا ليلًا، حين يلتقي بعدنان لبعض الوقت، لكن حتى تلك اللحظات لم تكن كما قبل، كان يشعر أن هناك شيئًا مكسورًا... هذا ليس عدنان الذي يعرفه.
أين الضحكات؟ أين القرب؟ أين المزاح والمقالب والمواقف الصاخبة؟
لم يعد عدنان كما كان... تغير، بهت صار باردًا، صامتًا، بعيدًا لم تعد الجلسات تعج بالضحك، بل بات الصمت يملأ الفراغ، بات كل منهما يجلس بعيدًا عن الآخر، والمسافة بينهما ليست أمتارًا... بل وجعًا.

فريد حاول كثيرًا، حاول أن يعيد الأمور إلى ما كانت، صبر، برّر، سامح، انتظر، لكن لا شيء عاد كما كان. وبدأ الجفاء يكبر، وبدأ عدنان يبتعد أكثر، حتى أصبح كل عتاب من فريد يقابله رد قاسٍ، كأن العتاب أصبح عبئًا، كأن الألم أصبح تهمة.
ومع كل كلمة جارحة، كان عدنان يعود ليعتذر... وفريد، من شدة الحب، كان يسامح. مرارًا وتكرارًا.
لكن شيئًا في قلبه بدأ ينكسر.

لم يعد عدنان يسأله عن ألمه، لم يعد يقص عليه همومه، لم يعد يضحك معه كما اعتاد. كان فريد في أمس الحاجة إليه، في لحظات ضيق، لحظات بكاء، لحظات ضعف... لكن لم يكن عدنان موجودًا.

كان يراه يضحك مع غيره، يمازح غيره، يخرج مع غيره. أما حين يلتقيه، فكأنما يلتقيه جسد بلا روح، حضور ثقيل، كلام شحيح. كان عدنان كأنه يهرب... يهرب من فريد، يهرب من شيء ما.

فريد كان يراقب بصمت، يبتلع الإهمال والخذلان مرة تلو الأخرى. كان يعاتب، ثم يسكت، ثم يعتذر هو، رغم أنه المجروح. وكان يسمع من عدنان كلمات قاسية، لا تليق بشخصٍ يعرف تفاصيله.

بدأ فريد يشعر أن السر الذي اعترف به لعدنان هو السبب. وأن ما تغيّر، لم يكن المسافة، ولا الوقت، بل نظرة عدنان إليه.

"كنت دائمًا أقول له: لا تدع الأيام تغيّرك... هل نسيتني؟ هل سيتغيّر شيء بيننا بسبب سري؟"

وكان عدنان يطمئنه: "مستحيل. أنت ضحية، وأنا أعرف من تكون." لكنه كذب... أو خان الحقيقة.

لقد أصبح السكين الأخيرة في صدر فريد.

مرّ عام... ثم آخر... ثم نصف عام.

سنتان ونصف من الخذلان، من الألم، من العتاب الذي لا يُجدي، من البكاء في الخفاء، من محاولة الترميم الفاشلة. سنوات من السهر، من الأرق، من التشتت، من النظر إلى هاتفٍ لا يرن، ورسائل لا تأتي.

ازدادت مشاكل فريد في هذه المرحلة، لكن هذه ليست كغيرها.

لم تكن مشكلة جديدة تضاف إلى سلسلة الآلام... بل كانت الطعنة التي أنهت قدرة قلبه على التحمّل. كانت القشة التي قصمت ظهر هذا القلب المتعب.

لم يكن فريد يبكي لأنه خُذل فقط... بل لأنه خُذل ممن وعده أن لا يخذله.

كل يوم كان يرى عدنان يُعطي غيره ما كان يعطيه لفريد. كان يرى وجهه يبتسم لغيره، ويغلق قلبه دونه. كان يرى كيف صار شخصًا آخر... كيف فقد دفء صداقته، وصار غريبًا.

"حين كنت أخرج معه، كان صامتًا، كأنني عبء. وما إن يأتي أحدٌ آخر، حتى يعود عدنان الذي أعرفه، المليء بالمرح والضحك... لكنه فقط لغيري."

وكان فريد يردد في سره: "لم أعد أحتمل... حتى الصمت صار يؤلمني"

في إحدى الليالي، بعدما حاول مجددًا أن يعاتب ويشرح ويطلب، قوبل كعادته بالقسوة، برد جارح، بإسقاط جديد، لكن هذه المرة، لم يعد فريد كما كان.

هذه المرة... قالها.

أنا لم أعد أريدك... لن أقاطعك، ولكن لن أكون"
".فريد المعتاد
قالها بثبات ولأول مرة، تكلّم باسم الكرامة.
"إذا مرضت، لن آخذك للمشفى، وإذا لم تأكل،
لن أُطعمك. إذا كنت حزينًا، لن أسألك عن
السبب، لن أحاول التخفيف عنك, لن أكون
فريد الذي كنت تعرفه."
"سأكون كأي شخصٍ عابر... لن أعاتبك، لن
أبكي أمامك، لن أشاركك يومي، ولا نجاحي، ولا
حزني. لن أقول عنك أخي، ولن أكون الجبل
الذي كان دومًا خلف ظهرك."
"سآتي عرسك كأي معزوم، لا كأخ."

عدنان صُدم... لم يتخيل أن فريد سيصل إلى
هنا، لكنه لطالما تجاهل كل التحذيرات... وفريد
لطالما قالها: "لا تختبر صبري... لا تختبر
كرامتي."
حاول عدنان العودة مرارًا. لكن فريد... كان
قد تغيّر.

ما شعر به لم يكن زعلًا عابرًا. لقد كان جرحًا لا يندمل، خيبة لا تُمحى.
"شعرتُ أنني لا أساوي شيئًا في قلبه... رغم أنني أعطيته كل شيء."
كان عدنان الأمل الأخير. فريد قد تعرّض للخذلان مرارًا من أصدقاء كُثُر. ولكن عدنان... كان الاستثناء. كان الحلم، وكان الأمان.
لكن... حتى الأحلام قد تخونك.

الآن، أصبح التواصل بينهما رسالة نصية كل أسبوع أو أسبوعين:
– كيف حالك؟
– بخير. وأنت؟
– بخير. العمل؟
– جيد. وأنت؟
– أيضًا جيد.
وينتهي الحوار... كأن شيئًا لم يكن.
وهكذا، انتهى فصلٌ آخر من فصول فريد، لا بخاتمة، بل بندبة... ندبة لن تلتئم ما حيي.

الفصل السابع عشر

من الجامعة إلى الصراع مع الحياة

كانت حياة فريد الجامعية بسيطة إلى حد ما. يستيقظ في الصباح الباكر، يرتدي ملابسه بعناية، كان دائمًا أنيقًا، نظيفًا، متألقًا. لم يكن يهتم كثيرًا بآراء الناس، لا بمدحهم ولا بذمّهم، لكنه كان حريصًا على ألا يعيد تجربة التنمّر القاسية التي عاشها سابقًا. كان مظهره هو درعه، وشكله الخارجي انعكاسًا لحرب داخلية لا تهدأ.

يحمل كأس القهوة، يضع أغراضه في حقيبته، ويتوجه إلى الجامعة. في البداية كان كأي طالب جديد، لا أصدقاء، لا رفقة، يبحث عن القاعات مثل "سنفور" ضائع، رغم أنه كان أكبر من دفعته بسنة ونصف بسبب تأخره في مرحلة التوجيهي.

لم يكن يحب الدراسة، لكن تحصيله العلمي كان جيدًا. مع الوقت بدأ يتعرف على بعض الزملاء، يتواصل معهم، يتشكل محيط اجتماعي صغير. لكنه لم يكن يشعر بالراحة الكاملة، كان دائم العودة إلى منزله بعد انتهاء محاضراته. وفي المساء، إما أن يلتقي ببعض الأصدقاء أو يبقى وحيدًا.

مع الوقت بدأ العمل إلى جانب الدراسة، في خدمة توصيل الطعام. لم يعد هناك وقت فراغ كبير، لكن هذا الانشغال اليومي كان فرصة لصقلِ شخصيته، شاب طموح يريد مستقبلاً مشرقًا. قرأ كثيرًا من الروايات الرومانسية إلى القصص الحزينة والعلمية والثقافية، لم يكن يلتزم بنوع واحد، بل كان يبحث عن المعرفة والحكمة والنضج.

على الرغم من الظروف الصعبة والسقطات، إلا أن فريد لم يستسلم، سقط مرة، ووقف عشر مرات، كانت سنوات الجامعة الأربع نقطة تحول حقيقية في حياته.
في سنته الأخيرة، استأجر بيتًا جميلاً بإطلالة رائعة، صار هذا البيت مقصدًا لكل أصدقائه، مكانًا للسهر والتجمّع والضحك، فريد الذي يسكن وحده أصبح مضيفًا دائمًا. لكن حين يرحل الجميع، يعود وحيدًا، يجمع الأكواب، يرتّب المكان، ويجلس في هدوء المساء... ليظهر وجهه الحقيقي: الحزين، المنكسر، الذي اعتاد إخفاء ألمه تحت قناع الصخب.
أنهى فريد دراسته وعاد إلى مدينته، حاملاً شهادة البكالوريوس في أحد تخصصات تكنولوجيا المعلومات. بعد عودته بشهر ونصف فقط، تلقى عرضًا من شركة ناشئة، فوافق فورًا. لم يكن الراتب جيدًا، لكن فريد لم يكن يطلب المال بقدر ما أراد أن يشق طريقه.

عمل بجد، وأثبت نفسه سريعًا، بُنيت علاقة قوية بينه وبين صاحب العمل، وعملوا معًا على إنجاح الشركة. ومع الوقت، نمت الشركة وذاع صيتها في المجال التكنولوجي.
إلى جانب العمل، وبعد انتهاءِ الدوام، كان يعمل في توصيل الطعام عبر أحد التطبيقات. كان يومه يبدأ الساعة 8 صباحًا وينتهي أحيانًا في الثانية بعد منتصف الليل. يغيّر ملابسه في السيارة، يعمل طوال اليوم، ثم يعود للمنزل ليأكل أول وجبة في يومه وينام.
استمرت هذه الوتيرة قرابة السنة. خلال هذه الفترة، بقيت علاقته بعدنان مستقرة إلى حد ما، كما تحسّنت علاقته بعائلته. لم يكن فريد ينسى ما مرّ به في طفولته، لكنه أحبّ عائلته واحترمهم، ووفّر لهم ما يستطيع، حتى وإن كانت الذكريات لا تغيب.
لم يكن يختلط كثيرًا بهم، كان كثير الشرود، قليل الكلام، أحيانًا يضحك معهم ليبدو طبيعيًا، لكنه من الداخل لم يكن كذلك.

بعد عام، قرر أن يبدأ مشروعه الخاص من المنزل إلى جانب وظيفته. بدأ بشكل جيد، لكن سرعان ما ضربت جائحة كورونا العالم،
وتوقفت الكثير من الأعمال. لم يصمد مشروع فريد لأكثر من ستة أشهر. أنفق مدخراته بالكامل، وشعر ببعض الضيق، لكن ما مرّ به من قبل كان أقسى.

تجاوز الأزمة بأقل الأضرار النفسية، وإن كانت المادية موجعة. واصل العمل، ليلًا ونهارًا. فريد لم يكن يعرف الاستسلام. لحظات الضعف واليأس كانت تأتي، لكنه دائمًا ما يُنقذ نفسه في اللحظة الأخيرة.

كل الظروف التي مر بها، على الرغم من قسوتها، كانت تُشكّل داخله رجلًا لا يُقهر. رجلًا يعرف كيف يقف مجددًا مهما تعثّر. فالحياة تستمر... وفريد قرر أن يستمر معها.

الفصل الثامن عشر

نحن جيلٌ لا يُشبه أحد

نحن الجيل الذي تربّى بين"
لعب الحارة وصدمة الحداثة؛
جيل علّمته الحياة أن يتأقلم
دون أن ينسى، وأن يضحك
رغم الندوب."

كبرنا في زمنٍ لا يشبه ما نعيشه اليوم، نحن أبناءِ ما بين عالمين: نُقشَت طفولتنا بالحجارة والتراب، ثم قذفتنا الحياة فجأة إلى عوالم الشاشات والضغوط والأسلاك.

كنت دائمًا أفكر... نحن جيل غريب، جيل استثنائي... لا يشبه أحد. وُلِدنا في عالمٍ بسيط، لكنه كان يتحوّل أمام أعيننا بسرعة مذهلة. لم نكن نملك هواتف في جيوبنا، كنا نملك مفاتيح للشارع. كبرنا في ساحات الحارة وعلى أرصفة التعب... نركض ونلعب ونتقاتل ونضحك، ثم فجأة... أصبح العالم شاشة.

كنا جيل التسعينات... جيل قناة سبيستون. شاهدنا على شاشتها أحلامنا تنمو مع القناص، وانكسرنا مع ريمي، وعشنا المغامرة مع هزيم الرعد وصقور الأرض. كنا ننتظر المسلسل لا لنتسلى فقط، بل لنعيش معه حياة كاملة. لا زلت أتذكر "أنا وأخي" حين كنت أبكي دون أن أعرف لماذا... كانت قلوبنا صغيرة ولكنها تفهم الحزن.

وفي الشوارع الخلفية، كنا أبطالًا آخرين. نلعب "جول إنجليزي"، و"سبع حجار"، و"غلول"، و"غميضة"، و"كيلو بامية"... ألعاب دون قواعد واضحة، لكنها علمتنا روح الفريق، الحيلة، الصراخ، الصداقة، والضحك الصافي.

لم نكن نملك شيئًا، لكننا كنا نملك كل شيء.
جاءت التكنولوجيا كعاصفة... لا أحد درّبنا على ما يعنيه الإنترنت، أو الفيسبوك، أو واتساب، أو الانستغرام. فجأة، صرنا نُقارن حياتنا مع غيرنا، صرنا نُقاس بعدد اللايكات، نُراقب ونُراقَب.
ثم أتت كورونا، وكأنها صفعة لهذا الجيل.
الجيل الذي قاوم كل شيء، اضطر هذه المرة أن يواجه نفسه في غرفة مغلقة. زادت العزلة، وزادت الهموم، وانهارت خطط كثيرة... لكنها لم تكسرنا، فقط علمتنا أن نكون أكثر صمتًا... أكثر حذرًا.

نحن جيل ينهض بعد كل سقوط، حتى إن بدونا منهكين. تعلمنا ألا نطلب المساعدة، بل أن نكون من يمدّ يد العون. نضحك كثيرًا لأننا بكينا كثيرًا. نحن جيل لا يحبه التاريخ، لكنه كتب التاريخ.

كبرنا قبل أواننا، أحببنا بصدق، وخُذِلنا بمهارة، قرأنا كثيرًا، وفهمنا قليلًا، لكننا وعينا أكثر مما يجب.

لم أعد أحفظ الكتب كما كنت صغيرًا... لكني أحفظ وجوه أصدقائي في الحارة، أحفظ صوت سبيستون وهي تقول "شباب المستقبل"، وأحفظ صوت ضحكتي عندما كنت أركض خلف الكرة على أرض ترابية.

أنا فريد... أنا من هذا الجيل.
جيلٌ بين عالميْن.
جيلٌ لا يُشبه أحد.

الفصل الثامن عشر

السرُّ الذي لم يعرفه أحد "أنا ونور... تحت عباءة الخيال"

بعض الحكايات لا تُروى، لا"
لأننا نخجل منها، بل لأنها
تُقطّعنا من الداخل كلما
نطقناها..."

بعد عودته من الجامعة، لم يكن فريد الشخص ذاته الذي غادر منطقته قبل أربع سنوات.
صحيح أنه عاد بشهادة أكاديمية وخبرة في العمل، لكنه أيضًا عاد بأرواح مهزومة تعيش داخله، بروح منطفئة لا تشعر بالانتماء لأي مكان. تعوّد الوحدة، الأكل بصمت، النوم بصمت، والحياة دون ضجيج أو سؤال.
أربكته العودة وصخب العائلة، وجع التكيّف، ضغط العمل، وبرود عدنان الذي بدأ ينمو بينهما كهاوية يصعب عبورها. لم يكن فريد قادرًا على إيجاد نقطة اتزان. فكان يبحث عن ملاذ، عن فسحة يصرخ فيها دون أن يسمعه أحد، عن مكان يخلع فيه وجهه القوي والمتماسك ويبوح.

ومثل كثيرين من جيله، وجد في الإنترنت عالماً موازيًا، لكنه لم يكن يتصفح فقط، بل خلق شخصيتين وهميتين: "نور" الفتاة الجميلة الرقيقة، و"أحمد" الشاب الجريء، من خلال هاتين الشخصيتين، كان يدخل إلى عالم الدردشة المظلم، حيث الكلمات تصبح سكاكين، والرغبات تتحول إلى انفجارات مكتومة.

في هذا العالم الافتراضي، لم يكن فريد يبحث عن حب أو صداقة... كان يبحث عن تفريغ، عن شيء يُسكته من الداخل. بدأ يتحدث مع شباب غرباء، يتبادل معهم أحاديث جنسية وعبارات فاضحة، في محاولة لتفريغ شهوانيته المكبوتة، التي ظنّ أنه يُسيطر عليها. لكن الشهوة لا تُكبح بالهرب... هي كالوحش، كلما أطعمته، جاع أكثر.

كان يغلق باب غرفته، يُطفئ الأضواء، ويقضي ساعات طويلة بين الحسابين، يمثّل، يضحك، يتحدث بكلام لم يعتقد يومًا أنه سيقوله. وفي داخله، كان يعلم أن ما يفعله خطأ، لكنه ضعيف، ضعيف جدًا... وكل هذا الانفجار كان نتيجة طفولة مكسورة، وذكريات مدفونة، وجروح لم تُشفى أبدًا.

وذات مساء... جاءه فارس.

شاب في الثامنة والعشرين من عمره، بدأ الحديث مع "نور" برسالة قصيرة، وتحول إلى رفيق يومي لا يشبه الآخرين. لم يطلب صورًا، لم يلحّ على مكالمات، بل تحدث، ضحك، فضفض، وشارك نور أسراره، بدا ذكيًا وحنونًا ووسيمًا. وبدون أن يشعر، بدأ فريد (المتقمّص لدور نور) يتعلق بفارس... لقد كان يعامله كأنه حقيقي، كأنه يستحق أن يُحب.

لكن كل تمثيل له نهاية، وكل وهم يكشف وجهه... طلب فارس لقاءً، وفريد ارتبك. ماذا يقول؟ من يكون؟ وأي قناع سيخلعه هذه المرة؟ قرر المواجهة. أخبره بكل شيء... اسمه، حقيقته، قصته، ألمه.

وصُدم من ردة فعل فارس... لم يغضب. بل ابتسم مازحًا: "أتريد أن تنام في حضني الليلة؟". ضحك... مزاحٍ؟ ربما. لكنه كان مزاحًا قاتلًا، ففريد كان مرهقًا، محطمًا، مشتاقًا لأي ذراع تحتويه.

وفي لحظة ضعف قاتلة... التقى بفارس.

ليستمر اللقاء خمس ساعات، جسد تحت سيطرة الشهوة، وعقل مشلول لا يملك قرارًا. تكررت المأساة، ولكن هذه المرة ليست بالإجبار... بل بالانهيار. لم يكن فريد مغتصَبًا... بل مغلوبًا. ضحية نفسه، وضحية سنوات من الانكسار، من الصمت، من القهر.

وبعد اللقاء، وقف فريد على شرفة تطل على المدينة، والبرد يصفع وجهه.
"يا رب... هل ستسامحني؟ هل تقبل أني وقعت لا لأنني أستهين بك، بل لأنني تعبت؟ لأنني ضعيف؟ هل ستغفر لي؟ هل تراني؟"
عادت الأسئلة كلها، عاد جلد الذات، وعاد الحزن بأضعاف. في اليوم التالي، أرسل له فارس رسالة: "كيف كانت الليلة الماضية؟ هل استمتعت في حضني؟"... ليغلق فريد الهاتف والأنفاس تتقطع من صدره. رد عليه برسالة واحدة: "أحبك، ولكنني أحب الله أكثر... وداعًا".
وحذف كل شيء، الحسابات، الصور، الذكريات، لكن الذاكرة لا تُحذف بزر، والقلب لا يُطفأ بزر، والندم لا يُمحى بلحظة. عاد فريد إلى عالمه الواقعي... أكثر حزنًا، وأكثر صمتًا.

ولم يعلم أحد... حتى عدنان، لم يعرف هذا السر.

ذا هو الوجه الآخر لفريد. فريد الذي صمد، ثم انهار. الذي قاوم، ثم خضع. الذي غرق، ثم خرج يتنفس على استحياء. كل ذلك وهو يضحك في وجوه الناس...
هو لم يكن يبحث عن لذة فقط، كان يبحث عن حضن... ولكن الحضن الذي اختاره، كان مسمومًا.

ولأن الحياة لا تنتظرنا لنرتب أنفسنا، كان عليه أن ينهض، ويمضي... ولا أحد يعلم كم من الكسور تحت جلده.

الفصل التاسع عشر

الوداع الأخير

في لحظةٍ لا تُشبه سواها، كان لا بدّ لفريد أن يكتب النهاية بيده... لا لأنّه أراد، بل لأنه تعب.

بعد سنين من العِشرة، من الحبّ، من الضحك والبكاء، من أنصاف الليالي التي أمضياها في الحديث، والمشاوير التي لا تنتهي، والمواقف التي أثبتت فيها الحياة أن العلاقة بينهما ليست ككل العلاقات... بعد كل هذا، وقف فريد أمام مرآته وقال: "كفى."

لم يكن فراق عدنان سهلًا... ولم يكن قرارًا عاديًا، بل كان أشبه بخلع القلب من مكانه. كان يعلم تمامًا أن من يحبّ حقًا لا يستسلم، لكنه أيضًا كان يدرك أن الحبّ الذي يُطفئ روحه كل يوم، ليس حبًا... بل احتراق.

غاب عدنان، لا جسدًا بل روحًا... غابت الضحكة، وغابت العناية، وغابت المكالمات التي لا تنتهي، والرسائل الطويلة، والقلق الطفولي من تأخر الطرف الآخر، غابت كل التفاصيل الصغيرة التي كانت تصنع لفريد المعنى.

وصار فريد رجلًا بلا ظل.

جلس على سريره في تلك الليلة، ولم يبكِ... بل ظلّ يحدّق بالسقف. شعور غريب اجتاحه، كأنّ روحه معلّقة، لا هي على الأرض ولا في السماء. يشتمّ رائحة عدنان في قميصٍ نسيه، يسمع صوته في رنين الهاتف، يرى وجهه في كل الوجوه.

كان يعلم أنه يجب أن يكمل الحياة، وأن يعيش، وأن يبتسم... لكنه لم يكن يعرف كيف.

مرّت الأيام ثقيلة... كل صباح كان كحملٍ جديد، وكل مساء هو ذِكرى. كانت الذكريات لا تتركه. يفتح المحادثات القديمة بينهما ويقرأ... ليس ليراجع الكلمات، بل ليشعر للحظة أن عدنان ما زال هناك.

يحاول أن يتذكر سبب الفراق ليثبت لنفسه أنه
اتخذ القرار الصحيح، لكنه في كل مرة ينسى،
ويتذكر فقط كم أحبّه.
كان الألم يشبه غصّة لا تزول، كجرح لا يلتئم،
كعِطر قديم في قميص لا يُغسل. يمشي فريد
في الأماكن التي جمعته بعدنان، يزور الكافيه
القديم، والحديقة التي كانا يجلسان فيها،
يتخيل ضحكته، يتخيل حديثه، يتخيل وجوده
ولا يجول بخاطره إلا هذا السؤال:

لماذا هجرتني؟!
ألاني احببتك أكثر مما يجب؟
أم لأن قلبي كان واضحاً أكثر من اللازم؟
كنت أراك وطني، فهل أخطأت حين زرعتك
في قلبي وطناً، تركتني كأني لم أكن،
ومضيت..
ولم تترك خلفك حتى عذراً، ولا حتى حزناً
مشتركاً.
فقط انا!!!
أحمل وجعي، وأسأل: لماذا هجرتني؟

وفي تلك اللحظات، لا تعود كل القوة التي بناها فريد قادرة على منعه من الانهيار. كان يعود إلى البيت مثقلًا، يبكي دون صوت، أو يحدّق
بالسقف مجددًا. كأنّ الروح تأبى أن تنسى، كأن الذكريات ترفض أن تموت.

كلّما ظن أنه شُفي، جاء طيف عدنان ليقول له:
“أنا هنا.”
الفراق ليس لحظة واحدة... بل هو ألف لحظة موزعة على العمر. كل شيء يُذكّره بعدنان، حتى الأشياء التي لا علاقة لها به. أغنية، كوب قهوة، نكتة، شارع، صوت... كلّها تصرخ باسمه.
لا تتكلم عن الحزن والألم ما لم تجرب أن تتعلق بشخص وتقول له كل شيء يحدث معك وتفضفض له كل يوم. ولا يكتمل يومك إلا إذا تكلمت معه. وفجأة دون سابق إنذار، يتغير عليك وتصبح العلاقة سطحية، ولا احد يعلم عن الأخر شيئاً.

ورغم ذلك، رغم كل الألم... لم يتراجع.

فريد كان يعلم أن الفراق قرار رجلٍ أنهكته المعارك، رجل لم يعد يقوى على الحرب، لا لأن الحب انتهى، بل لأن الكرامة قررت أن تنتصر.
في النهاية... الفراق أيضًا وجه من وجوه الحب.
ذلك كان وداع فريد لعدنان.
لم يعد في قلبي ما يقال... أرخيت كل سيوفي فلم تعد هذه الحرب حربي...
وأدركت أنه مهما حاولت فالعودة إليك محالة... أعلنت استسلامي وودعت حبي لك بلا جدال....
غادرت لأنني عرفت جيداً أن المحاولة مرة اخرى لن تغير شيء...

الوداع الأخير... الذي لا عودة بعده.

الفصل العشرون

مرّ كل شيء... ولم أمر

لم أعد أعدّ المرات التي متُّ“
فيها، ولا اللحظات التي تمنيتُ
فيها أن أختفي، ولا عدد المرات
التي عدتُ بها من الحافة دون أن
”.ينتبه أحد

أنا فريد... وهذا اسمي. لا أملك أن أكون سواه.

أعود بذاكرتي إلى الوراء... ليس بضع سنوات، بل بضع حيوات، كل مرحلة مررت بها كانت حياةً كاملة تنهار، وأخرى تولد من رمادها، لم تكن نجاتي سهلة، ولا كانت معركتي مفهومة للناس.

طفولتي؟ كانت زنزانة ضيقة من الخوف، جسدي لم يكن لي،كان أرضًا مستباحة, وقلبي لم يكن ملكي. أصرخ بلا صوت، وأهرب بلا وجهة، وأبتسم وفي داخلي آلاف الصرخات , ولم يسأل أحد: "ما بك؟" بل كانوا يسألون: "لماذا أنت هكذا؟" لم أكن طفلًا... كنت مشروع ألم مكتمل الملامح.

ومراهقتي؟ كانت مزيجًا من الأسئلة التي لم يجب عنها أحد، والأسرار التي حملتها وحدي، والأحكام التي صرخ بها المجتمع دون أن يسألني عن قصتي.

كنتُ وحيدًا، خائفًا، غاضبًا، وفي ذات الوقت ممثلًا بارعًا... أقف في المساحة ما بين الصراخ بصوت مكتوم والضحك بصوت مرتفع, لكنه ينام كل ليلة ممسكًا بمخدته كأنها أمه التي لم تحضنه، وأبًا لم يفهمه، وأخًا لم يسمعه.. ثم جاء عدنان... الصديق، الأخ، الأمل.طوق نجاة, لكنه كان أيضًا السهم الذي اخترق كل محاولاتي في الشفاء. لم يقصد إيذائي، ولكنه فعل. غيابه عني كان درسًا في الفقد، وصمته كان أقسى من أي عتاب. حاولت أن أكون له كل شيء، لكنه لم يرَ كم كنت أنا بحاجة إلى "شيء"

خضتُ علاقات وهمية، خلقتُ شخصيات غير حقيقية، تخفّيتُ خلف أسماء مستعارة... لا لأخدع أحدًا، بل لأهرب من نفسي. خضتُ رغباتي في الظل، ووقعت في الحرام وأنا أرتجف من الله... وأعود له بعدها منهارًا، باكيًا، متوسلًا ألا يتركني.

يا رب... أنت تعلم. لم أعد أقوى.” وكنت"
أعنيها لكنّي، لم أكن أهرب من اللّه... كنت
أهرب من نفسي، من جسدي، من قلبي
المُحمّل بالرغبات والعار والأسى، من روحي
التي كانت تبحث عن قُبلة على الجبين، لا
شهوة على الفراش

تعلقتُ بمن لا يستحق، وبكيت لأجل من لم
يشعر بي. كنت أبحث في الجميع عن حضنٍ
دافئ... فوجدت قبضات باردة، وقلوبًا لا ترى
فيّ إلا غريزة أو لحظة عابرة.
خُذلتُ من أصدقائي، من عائلتي، من
مجتمعي، من نفسي أحيانًا. عشتُ على
هامش كل شيء، كأنني أتنفس في الظل،
وأمشي على أطراف الحكاية.

لكن رغم كل شيء... أنا هنا.
لم أنكسر، وإن انحنيتُ. لم أمت، وإن
تمنيت. لم أُمحَ، وإن نسيت اسمي أحيانًا.

أنا فريد... لم أعد ذلك الطفل، ولم أعد ذلك الضعيف. نعم، سقطت، ولكنني نهضت.
مرّت كل السنوات، مرّت الوجوه، مرّ الألم، مرّ الغدر، مرّت الليالي الطويلة... ولم أمر. بقيتُ واقفًا، حتى إن انحنيتُ في بعض الأحيان.
الآن، أضع القلم لأقول: انتهى الجزء الأول من قصتي... الجزء الذي لم أكن فيه حرًّا، ولا سعيدًا، ولا مُطمئنًا.

والآن... تبدأ الرحلة الجديدة.

الفصل الواحد والعشرون

بداية الطريق الجديد

بعد كل ما مرّ به، بعد كل السقوط
والانكسارات، لم يسمح فريد لنفسه أن يكون
من أولئك الذين يركنون إلى الحزن ويعزفون
لحن الشفقة على الذات. لم يرد أن يكون مجرد
ضحية أخرى تتكئ على ماضيها وتبرّر به
حاضرها، بل قرّر أن يقف، قرّر أن ينهض من
جديد قرّر أن يتحوّل.
لم تكن الرغبة في التحوّل فقط للنجاة من
الألم، بل لتكريس حياته لشيء أكبر. أراد أن
يكون رجلًا ناجحًا، قويًّا، صاحب كلمة، نفوذ،
ومال... لا لأجل التفاخر، بل ليساعد الآخرين،
ليقف بجانب كل مكسور وكل مظلوم،
ليمنحهم ما لم يُمنح له. كان يشعر في أعماقه
أن ما مرّ به ليس عبثًا، بل تدريب قاسٍ لحمل
أمانة ما... رسالة عليه أن يؤديها.

لكنه كان يعلم أن البداية الحقيقية لن تكون من الأموال ولا النفوذ، بل من الداخل... من الداخل المكسور، المتعب، المتآكل.

6-6-2024

تاريخ محفور في ذاكرة فريد، كأنّما الزمن توقّف فيه للحظة.

استيقظ من نوم مضطرب، جلس على حافة السرير، يطالع ظلاله في المرآة، لأول مرة يرى وجهه بهذا الشكل... شاحب، مرهق، وعيناه مطفأتان، كأنهما لا ترغبان في النظر لأي شيء، أحسّ أن داخله يموت ببطء، وأنه إذا لم يتحرك الآن، لن يتحرك أبدًا.

حمل حقيبته، واتجه إلى العيادة النفسية. كان الطريق طويلاً، ليس بالمسافة... بل بالخوف.

كيف يعري روحه؟ كيف يكشف كل هذا الوجع؟ كيف يتحدث عن طفولته المغتصبة، عن رغبته المريضة، عن الكتمان الذي أنهكه، عن الشوق الذي مزّقه، عن صراخه الصامت كل ليلة؟

دخل العيادة، الغرفة كانت هادئة، بها ضوء خافت، وأريكة مريحة... لكنها بدت كخشبة إعدام روحي. جلس، وألقى التحية، وقال بصوت مرتجف:

– السلام عليكم دكتور، أنا فريد... عمري 27 سنة، وأريد أن أخبرك بكل شيء.

رد الطبيب بلطف وحنان:

– أهلًا بك يا فريد، تفضل... لا تستعجل، خذ وقتك.

وفجأة، انفجرت الدموع. لم يكن هذا بكاءً عاديًا، بل كان نحيبًا، بكاء طفلٍ انتُزعت منه الطفولة، وغُرِز في قلبه شوك الرجولة قبل أوانها.

سرد فريد حكايته، مجزّأة، ملتهبة، حافلة بالأوجاع، عن التنمر، عن الاغتصاب، عن الوحدة، عن حبٍّ لم يكتمل، عن عدنان الذي خذله، عن المقابر التي اعتاد أن يدفن فيها مشاعره بصمت.

حتى الطبيب، المتمرّس في الألم، انكسرت دمعة في عينه.

حين انتهى، ساد صمت ثقيل كأن الهواء نفسه لا يجرؤ على الحركة.

نظر الطبيب إلى فريد، وقال:

– فريد... أنا لا أملك كلمات توازي حجم الألم الذي سمعته للتو.

ثم تنهد، وأكمل:

– كل مرحلة من حياتك تمثل ملفًا علاجيًا منفصلًا... يحتاج إلى خبير، إلى وقت، إلى رعاية دقيقة. ما عشته لا يمكن تلخيصه بجلسة أو اثنتين. نحن نتحدث عن طفولة منهارة، عن هوية مضطربة، عن نوبات قلق، عن اكتئاب مزمن، عن اضطرابات جنسية، عن فقد، عن اضطراب ما بعد الصدمة...

وتابع الطبيب:

– تحتاج إلى فريق كامل، أربعة أخصائيين على الأقل، لكل منهم من 12 إلى 20 جلسة، وربما أكثر... أي ما بين 48 إلى 80 جلسة علاج. وقد تستغرق سنوات.

قال فريد بحزن:

– لكنني لا أملك المال يا دكتور... أربعون دينارًا للجلسة؟ كيف سأدفع ذلك؟

تنهّد الطبيب طويلًا، وقال:

– تابع حياتك يا فريد... **لأنه لن يساعدك أحد.**

خرج فريد من العيادة كما لم يخرج من قبل، خرج مكسورًا، مثقلاً أكثر من لحظة دخوله، الأمل الذي علق عليه نجاته تبخر في الهواء... تبخّر دون أن يترك وراءه شيئًا سوى الفراغ.

عاد إلى غرفته أغلق الباب أطفأ النور جلس على الأرض، وضمّ ركبتيه إلى صدره، كطفل تائه في عاصفة.

وبدأ يناجي ربه... لكن هذه المرة، لم تكن مناجاةً همسًا، بل صراخًا مكتومًا... كان يهمس ويبكي ويصرخ بصوت داخلي مرتجف:

– يا رب... يا من لا تضيع عنده الدموع، ولا تغيب عن عينه الأنّات، يا من وسعت رحمته كل شيء... دلّني. خذ بيدي، لا تتركني.

– أنا متعب، يا الله... مرهق حتى العظم. أشعر أن قلبي ممزق، وأن روحي تتآكل ببطء. لا أريد هذه الحياة، لا أريد أن أعيش محطّمًا. دلّني، ارشدني، أرسل لي علامة، نداء، أي شيء... فقط لا تتركني.

– يا اللّٰه، إنك تعلم أني حاولت. واللّٰه حاولت. وقاومت، وكتمت، وصبرت، وسكتُّ حين كان الصراخ أهون. أعلم أني أخطأت... لكنني لم أكن شيطانًا، فقط كنت إنسانًا متألمًا، ضعيفًا، حائرًا، تائهًا.

– إني أشتاق إليك... أشتاق إلى نورك، إلى طمأنينتك، إلى دفء التوبة بين يديك. أريد أن أكون عبدًا صالحًا. أريد أن أُغلق هذا الباب المظلم للأبد... أريد أن أعود.

– ساعدني. دلني على الطريق. ارزقني القوة، والثبات، والسكينة. خذ بيدي إليك، فأنا لا أعرف كيف أبدأ، لكنني أعرف أن لا مخرج لي سواك.

ونام في تلك الليلة ودموعه تنهمر كالنهر.

لكنه استيقظ في اليوم التالي على غير العادة... كان هناك شيء غريب شيء يشبه الأمل. لم يكن قويًا... لكنه كان موجودًا. وكأنّ اللّٰه أوحى إليه دون كلام:

"قُم... فإن لم تنهض أنت، فلن ينهض بك أحد"

فتح النافذة... دخل الهواء، ودخل معه قرار جديد.

قال لنفسه:

– ربما لا أملك المال للعلاج... لكنني أملك الإرادة أملك فريد، **أنا... أنا فقط، من سينقذ فريد.**

وبدأ من هنا... رحلة التغيير.

الفصل الثاني والعشرون

حين يفرج اللّه بعد الضيق "بصيص من الأمل"

مضى يوم فقط على مكالمة فريد لصديقه يخبره فيها بأنه قرر أن يُنهي مشواره الريادي مؤقتًا، ويعود للبحث عن وظيفة. كان منهكًا، خائر العزيمة، وكأن كل الأبواب أوصدت في وجهه دفعة واحدة.

لكن... جاء الفرج من حيث لا يحتسب.

رنّ هاتفه، وإذا بصديق آخر على الخط، يخبره أن هناك رجل أعمال مهتم بفكرة مشروعه ويريد الجلوس معه.

ابتسم فريد، لكن قلبه كان يقفز فرحًا، تمالك نفسه وأخفى نشوة الأمل التي بدأت تتسلل بين جدران يأسه، وبدأ يستعد للّقاء وكأنه يتهيأ لموعد عمره.

ذهب إلى الحلاق، قصّ شعره، رتّب لحيته، ثم عاد إلى البيت واستحمّ بماءٍ دافئ ليهدّئ توتره. ارتدى أجمل ما لديه من ثياب، ثم خرج... وفي عينيه بريق يشبه فجرًا وُلِد بعد ظلامٍ طويل.

استمر اللقاء ساعتين ونصف. تحدّث فريد بتفاصيل المشروع، بدايةً من الفكرة، مرورًا بكل الصعوبات، والسفر، والخذلان، وحتى الأيام التي نام فيها جائعًا ليكمل طريقه، شرح، ووضح، وأظهر كل ما يملك من شغف وحلم.

حين انتهى، ابتسم الرجل وقال له كلمات لم ينساها فريد أبدًا:

"أنا أحب أن أستثمر في شباب العشرينات... فيهم طاقة كبيرة. لكنك أنت؟ أنا أرى في عينيك ما هو أبعد من الشباب. أرى الإرادة التي لا تنكسر... ولهذا سأكون معك."

لم يُصدق فريد ما سمعه، هذه الجملة وحدها كانت كافية لتوقظ فيه ألف أمل. عاد إلى المنزل يتقدّ حماسة، وبدأ يستعد للمرحلة التالية.

توالت الاجتماعات، تقاربت الأفكار، وتوافقوا على كل التفاصيل، وبعد انتظارٍ دام سنة ونصف... بدأ فريد أخيرًا مشروعه.

وقف أمام مكتبه الجديد، وبدأ يسترجع تلك الليالي الطويلة التي قضاها بين شاشة الحاسوب والهموم. يتذكر القهوة التي شربها باكية، والسجائر التي احترقت على أطراف الخيبة. يتذكر دموعه المختبئة خلف ستائر الليل، وهمسه:

"يا اللّٰه... ما أكرمك."

قالها وهو ينظر إلى السماء، وكأن غيمة من النور أزاحت عنه الغبار الذي لطالما أثقل كاهله.

فلما ضاقت واستحكمت حلقاتها..."
".فرجت، وكنت أظنها لا تُفرجُ

فريد تذكّر تلك الليلة تحديدًا، الليلة التي قرر فيها أن يستقيل من عمله ويغامر، أن يسافر إلى دولة لا يعرف فيها أحدًا، ليلة داهمته فيها كل الأبواب المغلقة، وكل الخذلان دفعة واحدة، عاد إلى غرفته محطمًا، فتح المطبخ، صنع لنفسه قهوة مرّة بطعم كل أحلامه المؤجلة، أشعل سيجارة، واستلقى على سريره ينظر إلى السقف.

همس لنفسه:

"شو عملت بحالي؟ ليش هيك؟ كان ضليت بالوظيفة أحسن..."

لكن، فجأة، جلس فريد، وصفع نفسه بخفة، ثم قال بصوت عالٍ:

"لا! اتخذت قرارك يا فريد، ما في رجعة،
وصلت لهون؟ ما بتستسلم هلأ. ما في رجعة!"
كان فريد يعلم أن لا أحد سيقول له هذا الكلام
سواه... فقرّر أن يكون لنفسه الرفيق، والمحفز،
والملهم. لم يحتج أحدًا ليواسيه أو يشجعه...
لأنه علّم نفسه أن لا ينتظر أحدًا.
اليوم، ينظر فريدٍ إلى كل ما مرّ به ويبتسم. نعم،
التعب كان قاتلًا. الوحدة كانت موجعة. لكن ألم
المشروع كان أرحم بمئة مرة من ألم الماضي.
وها هو اليوم يخطو أولى خطوات النجاح...
فما بعد الضيق إلا الفرج.
وما بعد الصبر... إلا النور

الفصل الثالث والعشرون

خُلق لأجل شيءٍ أعظم

بالتأكيد لم تكن الرحلة راحة واستجمام، ولم تكن الحياة وردية مع فريد عندما بدأ بعمله الخاص. كانت هناك صعوبات، توتر، وعقبات من كل الاتجاهات، كأن العالم يختبره مرة أخرى:
هل تعلّمت الدرس؟
هل أنت حقًا مستعد لبداية جديدة؟
لكن لا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس.
فعندما يأتي العوض من الله، خالق كل شيء، يكون عوضًا لا يمكن تخيله، يكون كرمًا يُغرق القلب قبل الجيب، وراحة تتسلل إلى العظم بعد أن أنهكه التعب.

شعر فريد حينها أن الله منحه من القوة والصبر
وقدرة التحمّل ما لا يمكن وصفه.
قوة تشبه الجبال في ثباتها.
وصبر كأنه نبع لا ينضب.
وفي تلك الفترة، بدأ فريد يتحرر من قيود
التعلق.
لم يعد ينتظر أحدًا.
لم يعد يضع روحه في يد أحد.
اتخذ قراره أن يسير لا أن يجلس، أن ينهض لا
أن ينهار.
قرر أن يكون فريد القوي، لا فريد المنكسر.
أن يكون الرجل صاحب القلب الحنون، لا
صاحب الدموع الضعيفة التي لا يجد لها مَن
يجففها.
وربما، في الحقيقة، لم تعد هناك دموع.

لم يُخلق فريد لكي يحزن.
لم يُخلق فريد لكي يتألم، ليعاني ويبكي ويعيش منكسرًا في زوايا الحياة.
خلق الله كل نفس لرسالة.
وخلق فريد لغاية أكبر من الألم.
لأجل هدف معين، ولتأثير لا يعلمه إلا الله.
ربما لم يكن يعلم أن كل لحظة حزن مرّ بها، وكل دمعة سقطت، كانت تُعدّه ليحمل رسالة أن يكون الأمل لغيره.
أن يكون باب رزق لآخرين.
أن يكون مصدر قوة في عالم يمتص الضعفاء
كان يذهب إلى مكتبه كل صباح، يفتح بابه، ينظر إلى المقاعد التي جلس عليها موظفوه، ويتنهد:
ربما هذه هي الرسالة...
ربما أنا اليوم رزق لشخص آخر، كما تمنيت لو كان لي أحد حين كنت مكسورًا...

بدأت الأمور تسير على خير ما يرام بعد عدة أسابيع من الاتفاق مع رجل الأعمال.
بدأ فريد في توظيف بعض الشباب، استأجر مكتبه الخاص، وقع بعض العقود مع عملاء كبار، وبدأ اسمه يتردد بين الشركات.
بدأت الشركات تأتي إليه... تطلب خدماته...
تعرض عليه الشراكة.
وهنا، تيقن فريد أن عطاء الله لا ينفد
إذا أغلق الله بابًا، فإنه يفتح ألف باب
فقط كن صبورًا....
فقط تمسّك بإيمانك.....
فقط قاوم...
فريد كان يعلم أن الإنسان ليس مسؤولًا عن الظروف التي يولد فيها، لكنه مسؤول تمامًا عن القرار الذي يتخذه حين تسحقه الظروف، إما أن ينهار ويبحث عن شماعة يعلّق عليها فشله... أو ينهض، يزأر في وجه الحياة، ويقول: لن أكون ضحية.

هذه الحياة ليست عادلة، نعم.
ولكنها ليست مُلكًا لأحد.
ومن أراد منها شيئًا، عليه أن ينتزعه رغمًا عنها.
لماذا نستيقظ وكل همّ العالم فوق رؤوسنا؟
لماذا نسير كأشباح بلا روح؟
لماذا نعيش كأننا عابرون، بلا تركيز، بلا إحساس؟
نستحق أفضل.
نستحق الحب، والنجاح، والاستقرار.
نستحق أن نعيش كما يليق بنا لا كما فرضه علينا الألم.
نستحق أن نكون نحن... كما أراد الله لنا أن نكون.

الفصل الرابع والعشرون

نجاح بطعم الغياب

ما بين الأمس واليوم مسيرة لا يمكن اختصارها بجملة، ولا يمكن تلخيصها بإنجازات ونجاحات فحسب. فريد الذي كان قبل سنواتٍ يجلس على حافة الهاوية، ممزق النفس، غارقًا في معاركه مع الماضي، يقف اليوم شامخًا على أرضٍ بناها بعرقه وصبره.

افتتح شركته الثانية، لم يكن ذلك محض حظ، بل نتيجة تعبٍ متواصل، وخطط وسهرٍ ليالٍ طويلة بين ملفات العمل وجداول الميزانية وتفاصيل التنفيذ. وقبل أن يستوعب هذا الإنجاز، وجد نفسه شريكًا في شركة ثالثة. ثم، وكأن القدر قد قرر أن يعوّضه عن كل ما مضى، بدأ العمل على شركته الرابعة.

كلها فرص جاءت بعد الألم، بعد الكسر، بعد أن مرّ من نيران لا يتحملها بشر، وكأن اللّٰه يقول له: "ما كان صبرك عبثًا، وما كانت دموعك بلا معنى".

ولكن... رغم كل هذا، لم يشعر فريد بفرحة كاملة.

لم تكن هناك تلك النشوة التي يتحدث عنها الناس عند تحقيق الأهداف. لم يشعر بتلك الفرحة التي تفجّر القلب حماسة، أو ذلك الانتصار الذي يُسيل الدمع من شدّته.

كان يبتسم، نعم... لكن في عينيه شيء لا يُفسّر. شيء يشبه الهدوء البارد، يشبه الجليد.

افتتح مكتبه الأول، جلس خلف مكتبه الجديد، نظر إلى اسمه محفورًا على الباب... ولكنه لم يشعر بشيء.

أمسك أول عقد بين يديه، عقد انتظره أكثر من عام، كان من المفترض أن يكون لحظة الفرح الكبرى... ولكنه كان يشبه لحظة صمت.

ربما لأنه افتقد شخصًا. ربما لأنه، في أعماقه، كان يريد أن يركض إلى عدنان ويقول له: "نجحت يا صديقي... نجحت بعد كل هذا الوجع." لكن عدنان لم يكن هناك.

وربما لأن الماضي ما زال يعيش بداخله، يسكن في قلبه، ويترك ظلاله الثقيلة على كل لحظة بهجة.

صار فريد يشبه الجبل. قوي من الخارج، صلب، متماسك... ولكن في داخله تجويف عميق من الحنين.

كان النجاح بالنسبة له ضرورة، لا احتفال. كان خطوة على طريق طويل، لا نهاية الرحلة.

لم يكن حزينًا... لكنه لم يكن سعيدًا أيضًا.

صار ينجز مهامه بحرفية، يُقابل الناس بثقة، يتحدث أمام الشركاء ببلاغة ووضوح... لكنه عندما يعود إلى منزله، يعود إلى الصمت، يعود إلى الغرف الخالية التي لا يسمع فيها سوى صوت أنفاسه، وتلك الذكريات القديمة التي تأبى أن ترحل.

نعم، تغيرت حياة فريد. نعم، تحسّنت الظروف. نعم، أصبح رجل أعمال يُشار له بالبنان... لكنه في الداخل، لم يزل يحمل ذلك الطفل المكسور، وذلك المراهق الضائع، وذلك الشاب الذي كان يحلم فقط أن يُحَبّ، وأن يشعر بالأمان.

الفريد الذي نراه اليوم، هو رجل بنى من الرماد قصرًا... لكنه ما زال يسكن قلبًا تكسّرت نوافذه من عواصف الأمس.

وهذا ما يجعل نجاحه مختلفًا. ممزوجًا بالألم. ممتزجًا بالحنين.

نجاح بطعم الغياب.

الفصل الخامس والعشرون

فريد المتحدث والملهم

لم يكن فريد يوماً يبحث عن الأضواء، ولا طمح إلى أن يُصفّق له الناس أو يُتداول اسمه في الصحف والمجلات. كان يؤمن أن العمق لا يحتاج إلى ضجيج، وأن الحكمة الحقيقية لا تُنادى في الساحات، بل تُزرع في القلوب بهدوء، وتُروى بالصبر، وتُثمر حين يحين أوانها.

ومع ذلك، لم يكن بالإمكان تجاهل ما أصبح عليه فريد.

في زمنٍ تتكاثر فيه الوجوه وتتكرر القصص، كان فريد مختلفًا، شابٌ ثلاثيني يحمل في ملامحه أثر حكايات كثيرة، لا يرويها لكنه يوصلها, صمته يتكلم، وحضوره يملأ القاعات دون أن يرفع صوته.

لم يعد فريد ذلك الشاب الذي تتقاذفه الهموم
بين أركان الغرف المغلقة، بل أصبح وجهًا
مألوفًا في مؤتمرات الأعمال وندوات التطوير،
يجلس على المنصات لا ليحكي، بل ليُلهم.
بدأت الدعوات تتوافد عليه من جهات إعلامية
ومؤسسات تعليمية، أرادت أن تُظهر هذا
النموذج الشاب الذي استطاع بناء عدة شركات
خلال وقت قصير، شركات انطلقت من لا
شيء، من لا مال، من صبرٍ فقط وإصرار.
أحب الناس فيه صدقه الجاف، هدوءه،
وطريقته في الحديث. لم يكن يطلق الشعارات
أو يتباهى بنجاحه، بل يكتفي بكلمات قليلة،
يزرعها في قلوب الحاضرين فتظل تنمو لأيام.
كانت قصته تُروى من حوله، لا منه، الصحف
تكتب عنه: "شاب أردني يؤسس أربع شركات
خلال عامين"، "من الصفر إلى الريادة"، "رجل
أعمال صاعد يلهم الجيل الجديد"، لكنه ظل
صامتًا عن التفاصيل.

كان فريد يعرف أن ما خاضه لا يُحكى، وأن جروحه ليست للعرض. فما مرّ عليه، ما زال يعيش داخله لكنه، وللمرة الأولى، شعر أنه يمكن أن يحوّل ألمه إلى وقودٍ لأمل الآخرين. لا عبر حديثٍ صريح، بل عبر حضوره، عبر انضباطه، عبر النتائج التي يحققها رغم كل شيء.

صار يُنظر إليه كقدوة، بعضهم كان يرى فيه شخصية ملهمة في إدارة المشاريع، والبعض الآخر في صموده، وثالثون في صمته الذي يقول ما لا يُقال.

ولم يكن ذلك سهلًا عليه، فريد لا يحب الكاميرات، ولا تستهويه المقابلات، لكنه بدأ يُدرك أن الله أخرج من جراحه طاقةً جديدة، طاقة ترفع الآخرين، فوافق على الظهور، لكن بشروطه... بلا خوض في الماضي، بلا سؤال عن "لماذا بدأت؟"، فقط حديث عن "كيف استمريت؟".

وفي كل مرة يصعد فيها إلى منصة، كان يقف هناك وهو يعلم أن تحت هذا البدلة الأنيقة، وتلك الابتسامة المتزنة، يوجد قلبٌ خاض ألف حرب. لكن لا أحد يعلم... ولا أحد بحاجة أن يعلم.

يكفي أن يروا فريد الآن، ويعرفوا: أن النجاح ممكن. أن الألم لا يعني النهاية. وأن بعض القصص لا تُروى... لكنها تُعاش.

الفصل السادس والعشرون

هل غفر اللّٰه لي؟

في لحظة ما، بعد كل ما وصل إليه... في ليلة هادئة، جلس فريد على شرفته، تلك التي تطلّ على مدينة أضاءها النجاح، ولكن أظلمها شيء في داخله لم ينطفئ بعد. كان كل شيء حوله يقول إنه انتصر: مكاتبه التي أصبحت ثلاثة، ومشروعه الرابع الذي يُبنى على أعمدة من خبرة، وعقود متتالية، وأسماء إعلامية تطرق بابه لإجراء مقابلات معه.

ولكن... حين خفت ضجيج الخارج، وهدأ كل شيء من حوله، بقي فريد مع سؤالٍ واحدٍ فقط:

هل غفر اللّٰه لي؟

لم يكن سؤالاً عابراً، لم يكن مجرد قلق ديني سطحي، بل كان سؤالاً يُكابد فيه فريد أعواماً من الذنب، من الندم، من الانكسار، من الصراخ الصامت في غرفٍ مظلمة لا يدري بها أحد. هل تُغفر تلك الزلات التي لم يعرفها سواه وسواد الليل؟ هل يُمحى ألم السقوط الأول والثاني والعاشر؟ هل يُنسى ما كُتم من صرخات وما خُبئ من أسرار لا يعلمها إلا الله؟ كان يعرف أن الله رحيم، بل عظيم الرحمة... لكنه كان يخاف من نفسه، من أن تكون روحه أثقل من أن تُشفى.

وفي تلك الليلة، لم يبكِ فريد... ولكنه نظر إلى السماء، وتحدث مع ربه بصوت خافت لم يسمعه سواه:

يا اللّٰه، أنا فريد... العبد الذي ضل كثيرًا،"
وسقط أكثر، لكنه ظلّ يعود إليك، كلما
...انكسرت روحه
يا رب، أنا لست ذلك الناجح الذي يتحدثون
عنه، أنا فقط إنسان يحاول أن ينجو...
أحاول أن أكون أفضل، أن أغلب شهواتي، أن
أطفئ نار الذنب بداخلي، أن أحيا من جديد.
يا اللّٰه، إن غفرتَ لي... فلن أطلب شيئًا بعدها،
فقط السلام...
السلام يا رب... أريده في صدري، في ليلي، في
ذكرياتي، في تلك اللحظات التي لا يراني فيها
أحد"
ثم صمت... وظلّ ينظر إلى السماء، لا وحي
نزل، ولا نور غمره، لكن شيئًا ما بداخله هدأ،
وكأن اللّٰه أرسل طمأنينته بين ضلعٍ وآخر.
كان ذلك كافيًا لفريد... أن يشعر أن اللّٰه
يسمعه.

ومنذ تلك الليلة... تغيّر شيء في فريد.
لم يكن التغير واضحًا للناس، لكنه شعر به في أدق تفاصيل يومه. لم يعد يستيقظ فقط ليسابق الزمنٍ على المهام، بل صار يستيقظ ليحمد اللّٰه أولًا. صار يسأل نفسه كل صباح: "ماذا أفعل اليوم لأكون أقرب إلى اللّٰه؟"
لم يكن هذا التحول مجرد حالة عابرة من الندم، بل قرار داخلي بالاستقامة دون ادّعاء. لم يتحوّل فريد إلى واعظ، ولم يملأ صفحاته بالآيات والمواعظ، ولم يبدأ بإلقاء المحاضرات، بل اختار طريقًا صامتًا... طريقًا لا تراه العيون ولكن تشعر به الأرواح.
كان يعود إلى بيته منهكًا من العمل، لكن قبل أن يخلع بدلته ويغلق جهازه، كان يجلس في ركنه الخاص، يفتح المصحف، أو يهمس بدعاء، أو يكتب على دفترٍ صغير جمّع فيه كل أدعيته منذ بداية الألم.

كان يعلم أن المغفرة لا تُقاس فقط بالندم، بل بالإصرار على التوبة، وبأن تكون كل خطوة في حياته توبة تمشي على الأرض.
كلما كلم موظفًا، أو ساعد محتاجًا، أو أعطى من وقته لأحدهم، كان يقول في نفسه:
"هذه حسنة أخرى... لعلها تزيل عني سيئة من تلك الأيام"
وصار، دون أن يلاحظ، أكثر لطفًا... أكثر حضورًا... أكثر نقاءً.
لم يكن ملَكًا، ولم يخلُ من الضعف، لكنه صار شخصًا يحارب...
يحارب ليبقى نقيًا. يحارب ليظلّ قريبًا من الل
وكانت هذه المعركة الجديدة في داخله... هي أعظم انتصار حققه في حياته.

وفي ليلة هادئة... جلس فريد على شرفته،
يحمل كوب قهوته المعتاد، ينظر إلى السماء
التي لطالما حملت همومه.
لم يكن هناك شيء مختلف في النجوم، ولا في
الجو، لكن في قلبه كان كل شيء قد تغيّر.
مدّ يده إلى السماء، دون كلام، دون دمع، فقط
همسة خفيفة خرجت من بين شفتيه:
"يا رب... أعلم أنك غفور، فاغفر لي... لا لأني
أستحق، بل لأني أتيتك بكل ما فيّ منكسرًا...
محتاجًا إليك."
ثم أغمض عينيه، وابتسم لأول مرة... ابتسامة
سلام، لا فرح.
سلام مع اللّٰه، مع الحياة، مع نفسه.

الفصل الأخير

"صمت ما بعد الحكاية"

لا أحد يعلم ماذا تخبئ له"
."الأيام... ولا حتى فريد

مرت السنوات كأنها أعمار، مضت الحكاية،
وتوقفت الكلماتِ، لكنِ الشعور... لم ينتهِ.
لم يكن فريد بطلًا خارقًا، بل إنسانًا يتنفس
بالكاد، عاش، تحمّل، كُسر، ثم نهض.
بعض الجروح لا تندمل... لكنها تعلمنا كيف
نمشي ونحن نحملها.
وبعض الذكريات لا تموت... لكنها تترك فينا
البذور التي تنبت من جديد.
فريد لم يخرج من ظله، لكنه تعلم كيف يمشي
فيه دون أن يتعثر.
لم يعد يبحث عن خلاص كامل... بل لحظة
صدق، ونفسٍ مطمئن.
لقد فقد فريد نفسه مرات، لكنه وجد طريقه
في النهاية. وربما...
ربما لم تكن الحياة عادلة معه، لكنها لم تنجح
في تدميره.
فريد الآن لا يبكي كثيرًا. لا يضحك كثيرًا.

لكنه يعمل، يتحرك، يزرع، يحاول أن يكون
.شيئًا... لأجل من سيكونون بعده
وفي تلك الزاوية من قلبه، ما زال هناك سؤال
لم يُجب عليه:
"هل غفر لي الله؟"
ولم يكن لديه سوى أن يقول في سرّه:
"يا رب، أنا لم أكن يومًا ملاكًا...
لكنني كنت مكسورًا...
وكنت أحاول."

وهكذا... تنتهي الصفحة الأخيرة من هذا الجزء، لا بإغلاقٍ صارم، بل بنقطة هادئة في نهاية السطر.
لعل الحياة تكتب لفريد فصلاً آخر ذات يوم.

الخاتمة

ليس كل من نجى... عاش.
وليس كل من ابتسم... نسي

في نهاية هذا الطريق المليء بالندوب، لا يملك فريد شيئًا ليُريه للعالم سوى قلب لا يزال ينبض، رغم كل ما مزقوه فيه. صرخات اختنقت في حلقه، وخطوات حفرت في الأرض دربًا من الألم، وشظايا من ذاته تناثرت في كل محطة مرّ بها. لكنه اليوم، واقف. لا لأنه لم يسقط، بل لأنه سقط كثيرًا... وتعلم كيف ينهض كل مرة.

ظنّ الجميع أن فريد قد انكسر، لكن الحقيقة أنه انكسر مئة مرة... ثم قرر أن يجمع شظاياه بيده، ولو سال دمه من جديد.

هذه القصة ليست خاتمة، بل هي بدايات كثيرة توشك أن تولد.

ففريد لم يُشفَ تمامًا، وربما لن يُشفى يومًا،
لكنه فهم شيئًا واحدًا: أن الألم لا يزول، لكنه
يصبح جزءًا منك، وأنك لست بحاجة لأن
تُشفى كي تكمل الحياة، بل لتتعلم كيف تمشي
.بجرحك مرفوع الرأس
لقد أصبح فريد اليوم شخصًا آخر، ليس لأن
الماضي مات... بل لأنه اختار ألّا يُدفن معه.
اختار أن يعيش، لا لأن الحياة صارت أرحم، بل
لأنه قرر أن لا يكون ضحية أبدية.
وإن سألتموه عن أجمل ما في قصته،
سيجيب:
"أني ما زلت هنا... رغم أني مت ألف مرة."
هذه ليست قصة بطل خارق، ولا قديس طاهر.
هذه قصة إنسان... أراد فقط أن يُسمع صوته
ذات مرة.
صوت لم يسمعه أحد.
لكنه في النهاية، سمع نفسه.

النهاية